جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

أثر القرآن والسنة في النزعة التاريخية عند المسلمين

إعداد

د/ عجميه السيد محمد برايه

مدرس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة حلوان

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. مايو)
(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

أثر القرآن والسنة في النزعة التاريخية عند المسلمين

عجميه السيد محمد برايه

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة حلوان، القاهرة، مصر.

البريد الإلكتروني: agm.elsayed.b@gmail.com

الملخص:

يعرض البحث للنزعة التاريخية في القرآن والسنة وأثرها على كُتَّاب التاريخ والسير والشمائل النبوية، أبرز فيه تلك السمة المميزة للتاريخ في القرآن والسنة، و التي تأتي في شكلٍ متكاملٍ، مع التركيز على ما يرتبط بتلك الأحداث التاريخية من السنن الإلهية في البشر فيما مضى وما يأتي من الزمان. وقد جعلته في ثلاثة مباحث: الأول: النظرة إلى التاريخ في القرآن الكريم، أبرز فيه اهتمام القرآن الكريم بالتاريخ – عامة – وتاريخ البشر –خاصة – والذي ظهر في احتفائه بقصص الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– وإكثاره من عرض مواقف الأمم منهم، و مصيرهم الذي ترتب على هذا الموقف، ملقية الضوء على ما في القرآن من دلائل لفظية ومعنوية على هذا. الثاني: النظرة إلى التاريخ في السنة النبوية، وأعرض فيه لاهتمام السنة بما يستقبل من الفتن والملاحم والأشراط المؤدية إلى قيام الساعة أو المنتهية بها. الثالث: أثر تلك النزعة التاريخية على كتابة التاريخ والسير والشمائل النبوية، وفيه أبين انعكاس تلك النزعة التاريخية على علماء المسلمين – في الحقبة الإسلامية – في هذا المجال، و ألقي فيه الضوء على أهم العلوم الإسلامية التي أدت تلك النزعة إلى ظهورها أو تطورها .

الكلمات المفتاحية: القرآن، السنة، التاريخ، السير، الشمائل.

The impact of the Qur'an and Sunnah on the historical tendency of Muslims

Ajameh elsayed Mohamed Brayeh
Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Helwan University, Cairo, Egypt.
Email: agm.elsayed.b@gmail.com

Abstract:
The research presents the historical tendency in the Qur'an and Sunnah and its impact on the writers of history, biographies, and prophetic merits, in which he highlighted that distinctive feature of history in the Qur'an and Sunnah, which comes in an integrated form, with a focus on what is related to those historical events of divine norms in humans in the past And the time that comes. And I made it in three topics: the first: the view of history in the Holy Qur'an, in which the Holy Qur'an's interest in history - in general - and human history - in particular - was highlighted, which appeared in its celebration of the stories of the prophets - upon them be blessings and peace - and in its abundance of presenting the positions of nations towards them, and their fate that As a result of this position, shedding light on the verbal and moral evidence of this in the Qur'an. The second: Looking at history in the Sunnah of the Prophet, and presenting in it the concern of the Sunnah with what it receives of temptations, epics, and conditions leading to the establishment of the Hour or ending with it. The third: The impact of that historical tendency on the writing of history, biographies, and prophetic merits, and in it I show the reflection of that historical tendency on Muslim scholars - in the Islamic era - in this field, and shed light on the most important Islamic sciences that led that tendency to its emergence or development.

Keywords: Quran, Sunnah, History, Biographies, Virtues.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله مقلب الأيام والأزمان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي إلى الإيمان، وعلى آله وصحبه وبعد. فإن من ينظر في القرآن الكريم يلاحظ اهتمامًا بالغًا بالتاريخ عامةً[1]، وتاريخ البشر بوجهٍ خاص؛ إذ يعتبر قصص الأنبياء عليهم السلام والأمم من القرون الأولى من أهم الأركان التي قام عليها كتاب الله عز وجل. وقد اقترن تأريخ القرآن للسابقين ببيان السنن الإلهية في البشر بالإشارة الصريحة تارة، والإلماح تارة أخرى.

وعن السنة النبوية، فبدورها كانت مؤكدة على ما جاء في القرآن من تاريخ عامةً، واهتمت ببيان وتفسير الإشارات القرآنية عن الساعة وأشراطها -بوجهٍ خاص -من خلال التأريخ لما يستقبل من الفتن والأحداث المعلمة بقرب قيام الساعة أو المنتهية بها، بوصفها من السنن – أيضًا – المترتبة على حراك البشر في تاريخهم وبهذا تبدو النظرة للتاريخ فيهما تكاملية من مبتدأه إلى منتهاه. وقد انعكس هذا على علماء المسلمين – في الحقبة الإسلامية – في مجال كتابة التاريخ والسير والشمائل النبوية ودلائلها.

هذا الاهتمام بالتاريخ في القرآن والسنة كان دافع الباحث؛ لتسليط الضوء على تلك النزعة التاريخية فيهما.

١ مثل تاريخ الخلق، خلق السموات و الأرض، و خلق آدم، و تاريخ الرسل عليهم السلام ، فالقرآن يؤرخ لنا ما لم يستطع الإنسان تأريخه أو ما أغفله

أما أهداف الدراسة، فأهمها:

- إبراز تلك الصبغة أو السمة المميزة للتاريخ في القرآن والسنة مع الإشارة إلى ما يرتبط بتلك الأحداث التاريخية من سنن الابتلاء والاعتبار والتأمل في عواقب الأمور ... الخ، ما ينفى ما رآه البعض من أن الأسطورة في هذا القصص أكثر مما فيه من الحقيقة.
- بيان أثر القرآن والسنة على النزعة التاريخية عند علماء المسلمين، والذي ظهر في مجال التاريخ والسير والشمائل النبوية، ما أعطى الكتابة الإسلامية للتاريخ تميزها المعروف.

أما الدراسات السابقة، فمعلوم ما حظي به علم التاريخ من اهتمام العلماء والباحثين قديمًا وحديثًا. منهم من اهتم بالقصص القرآني بشكلٍ مباشر، ومنهم من كان له سهمٌ في بيان التفسير الإسلامي لحركة التاريخ بما تنبه إليه من سننه وفلسفته، ومنهم من ركز على دور المسلمين في كتابة التاريخ. ومنهم:

- د. محمد أحمد خلف الله في" الفن القصصي في القرآن الكريم "
- د. محمد بكر إسماعيل في " قصص القرآن "
- د. أحمد جمال العمري في " دراسات في التفسير الموضوعي. القصص القرآني "
- د. حسن قيلي في " السنن التاريخية في القرآن الكريم "
- د. توفيق بن أحمد الغلبزوري في " السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم "
- د. محمد بو رباب في " الإعجاز التاريخي في القرآن والسنة "
- حسن سلمان في " النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ "
- د.قاسم عبده قاسم في " فكرة التاريخ عند المسلمين "
- د. عماد الدين خليل في " التفسير الإسلامي للتاريخ "
- د. أحمد نوفل في " مناهج البحث والتأليف في القصص القرآني "

وقد يكون ما كتب في الموضوع ومتعلقاته أكثر مما وقعت يديَّ عليه، ولكن البحث يركز على الرؤية التكاملية للتاريخ في القرآن والسنة، وكيف أثرت على مصنفات العلماء التاريخية في الآونة الإسلامية.

وجعلت عنوانه "أثر القرآن والسنة في النزعة التاريخية عند المسلمين " وأقمت منهج البحث على الوصف والتحليل، وجاء البحث في مقدمةٍ وثلاثة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: النظرة إلى التاريخ في القرآن.

المبحث الثاني: النظرة إلى التاريخ في السنة.

المبحث الثالث: أثر تلك النظرة على النزعة التاريخية عند المسلمين. والله أسأل التوفيق فيما أسطر وأكتب، وله الحمد في الأولى والآخرة.

المبحث الأول: النظرة إلى التاريخ في القرآن الكريم

لفت القرآن الكريم أنظار العلماء؛ لما اشتمل عليه من إشارات علمية وكونية وجغرافية وتاريخية ... الخ، ما أثار لديهم تساؤل عما إذا كان القرآن كتاب علم أو فلك أو طب أو جغرافيا أو تاريخ ... الخ. وانتهى قولهم إلى أن القرآن كتاب هداية بالأساس، وأن ما جاء فيه من تلك العلوم والمعارف، فسيق مساق الهداية؛ ليتدبرها الإنسان ويعمل عقله فيها، ويستنبط ما فيها من دلالات هداية تنفعه في شئون دينه ودنياه.

وبناءً على ما تقدم قوله – وفيما يتعلق بالبحث، نلاحظ أنه على الرغم من أن لفظة التاريخ بتصاريفها لم ترد في القرآن الكريم، فإنه احتفى بالحديث عن التاريخ أحداثه وأشخاصه، وأماكنه وعصوره، فكان هذا الحديث مادة التاريخ الخصبة في القرآن الكريم، واستعمل في ذلك مصطلحات خاصة به، يمكن أن نطلق عليها الدلائل اللفظية والمعنوية على التاريخ.

أولاً: الدلائل اللفظية على التاريخ في القرآن الكريم. وهي كثيرة، نبين بعضها فيما يلي:

أ- الألفاظ الدالة على أحداث التاريخ:

١- القصص.

قصَّ الشئ: إذا تتبع أثره، و منه قوله ﷻ: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[١] أي " فرجعا يقصان آثار مشيهما حتى انتهيا إلى الصخرة "[٢] والقص في اللغة : البيان ، يقول ﷻ : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[٣]

١ سورة الكهف ، الآية رقم ٦٤ .

٢ التفسير الميسر ، نخبة من أساتذة التفسير ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م (١/ ٣٠١)

٣ سورة يوسف ، الآية رقم ٣ .

أي نبين لك أحسن البيان . والقص: فعل القاصَّ الذي يأتي بالقصة على وجهها، كأنه يتتبع معانيها وألفاظها. [١] والقَصص بفتح القاف: الاسم، أي الخبر المقصوص، وضع موضع المصدر حتى غلب عليه. [٢] وعلى ما سبق " سُمِّيَ الخبر المؤلف من حوادث مترابطة يتبع بعضها بعضًا قصة؛ لأن القَصاص يتتبع الأحداث فيسردها حدثًا بعد حدثٍ حتى يصل بالقصة إلى نهايتها ". [٣] و على الرغم من أن القص ورد بتصاريفه في بضع و عشرين موضعًا من القرآن الكريم ، فقد أخذ في القرآن مكانًا أكبر بكثير في خضم القصص القرآني ، حتى إنها اللفظة التي اختارها العلماء منذ القديم لتطلق على علم القصص القرآني ، فالقصص جانبٌ من أهم الجوانب التي قام عليها كتاب الله ﷻ ؛ إذ يضع أيدينا على بداية التاريخ الإنساني – وهو أمر يتجلى في قصة خلق آدم عليه السلام و ما تبعها من تعليمه الأسماء كلها – ثم كيف تتابعت الحياة بالبشر رابطًا ذلك بالعقيدة الصحيحة التي جاء بها رسل الله عليهم السلام ، و ما طرأ عليها من تحريف من قبل البشر في الأزمنة المختلفة . ولم تقتصر سياقات ورودها على قصص الأنبياء فحسب، بل اتجهت العروض القرآنية للتاريخ؛ لتحدثنا " عن مواقف الأفراد والجماعات إزاء عدد من الأحداث والقيم التاريخية ...ويصل بعضها إلى عددٍ من التجارب التي مارسها أفراد عاديون [٤] أو نفذها قادة وملوك وزعماء كبار [٥] سلبًا أو إيجابًا ". [٦] وفيما يلي نماذج منها:

---

١ لسان العرب لابن منظور ، ج٧ ص٧٤٠ .

٢ المرجع السابق ، الصفحة نفسها

٣ قصص القرآن ، د. محمد بكر إسماعيل ، ص٧ .

٤ مثل أصحاب الجنتين و أصحاب الحجر، و أصحاب الأخدود و أهل الكهف .

٥ مثل فرعون و قارون و هامان و أصحاب الفيل ، و ذي القرنين و طالوت الملك .

٦ التفسير الإسلامي للتاريخ ، د. عماد الدين خليل ، ص١٠٣ .

- **قصص الرسل والأنبياء.**

جاء قصص الرسل و الأنبياء في القرآن الكريم بعدة أشكالٍ، منها: الإشارة إلى قصصهم بلفظ القص نفسه أو فعله؛ ليؤكد على وجودهم الحسي في عصرٍ ما من العصور، و يؤكد حصول ما ذكر في القرآن من أحداث في حياتهم، من ذلك قوله ﷻ : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [١] في افتتاح سورة يوسف التي وردت بها قصة سيدنا يوسف عليه السلام . و من ذلك قوله ﷻ : ﴿فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٢] في سياق قصة سيدنا موسى عليه السلام التي كثر ورودها في القرآن الكريم.

والملاحظ أن الحق ﷻ أضاف لذاته فعل القص، كما أضافه للقرآن الكريم و للبشر، فمن الأولى و الثالثة ما وجدنا في الآيتين السابقتين، و من الثانية قوله ﷻ : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [٣] أي : " نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه " [٤] ، و منه اختلافهم " في المسيح عليه السلام ، فتحزبوا فيه فيه أحزابا، ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضا ، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به " . [٥] و هذه الإضافات المتعددة تؤكد على وقوع هذه القصص بأحداثها، فقد وردت على ألسنة الأنبياء،

---

١ سورة يوسف ، الآية رقم ٣ .

٢ سورة القصص ، الآية رقم ٢٥ .

٣ سورة النمل ، الآية رقم ٧٦ .

٤ زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٣٦٩)

٥تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٣٨٢)

و صدقها القرآن فوردت فيه، كما قصها الحق ﷻ ، فحازت بذلك أعلى مراتب الصدق . يقول ﷻ : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [1]

قال القرطبي : " أَيْ يَقُصُّ الْقَصَصَ الْحَقَّ، وَبِهِ اسْتَدَلَّ مَنْ مَنَعَ الْمَجَازَ فِي الْقُرْآنِ " [2] ، فلا مجاز و لا خيال في القصص القرآني .

- **<u>قصص المؤمنين والكافرين.</u>**

هو فرعٌ آخر من القصص القرآني ، يحكي عمن آمن و صدق ، و عمن كفر و كذب دعوة الرسل عليهم السلام ، ومن ذلك قوله ﷻ : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [3] ، تأتي الآية الكريمة في سياق قصة أصحاب الكهف ؛ تمهيدًا لتفصيلها ، و بيان الحق فيها بعد أن " اختلف أحبار اليهود ورهبان النصارى في أمرهم اختلافًا كثيرًا " [4] ، و أنه ﷻ يقص على نبيه ﷺ نَبَأَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ بِالْحَقِّ في آياتٍ من هذه السورة[5] التي سميت باسم المكان الذي أووا إليه " الكهف " .

وعلى الجانب الآخر ، يورد القرآن الكريم من قصص من انقلب على وجهه ، فكفر على علم ، يقول ﷻ : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ . . . فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[6] الآية الكريمة في سياق قصة أحد من بدلوا

---

١ سورة الأنعام ، الآية رقم ٥٧ .

٢ تفسير القرطبي (٦/ ٤٣٩)

٣ سورة الكهف ، الآية رقم ١٣ .

٤ قصص القرآن ، د. محمد بكر إسماعيل ، ص٣٦٩ .

٥ الآيات "٩-٢٦"

٦ سورة الأعراف الآية رقم ١٧٦ .

بدلوا نعمة الله كفرًا ، و بدايتها :﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾[١] جاء عَن الشّعبِيّ عن ابن عباس ﷺ فِي الْآيَة ، قَالَ: " هُوَ رجل من بني إِسْرَائِيل يُقَال لَهُ بلعم بن باعورا ، وَكَانَت الْأَنْصَار تَقول: هُوَ ابْن الراهب الَّذِي بنى لَهُ مَسْجِد الشقاق ، وَكَانَت ثَقِيف تَقول: هُوَ أُميَّة بن أبي الصَّلْت "[٢] . و الخلاصة أن كلاً منهم كانت له قصة في الكفر بالله بعد العلم بالآيات ، " فبَلْعَمُ بْنُ بَاعُورَاءَ كَانَ قَدْ حَفِظَ بَعْضَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ وَكَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ ... فَلَمَّا أَقْبَلَ مُوسَى فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لِقِتَالِ الْجَبَّارِينَ، سَأَلَ الْجَبَّارُونَ بَلْعَمَ بْنَ بَاعُورَاءَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مُوسَى، فَقَامَ لِيَدْعُوَ عَلَيْهِ فَتَحَوَّلَ لِسَانُهُ بِالدُّعَاءِ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: لَا أَقْدِرُ عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا تَسْمَعُونَ ، و أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيّ وَكَانَ قَدْ قَرَأَ الْكُتُبَ وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ مُرْسِلٌ رَسُولًا فِي ذَلِكَ فَلَمَّا أرسل الله محمدا ﷺ حَسَدَهُ وَكَفَرَ بِهِ ، وَقِيلَ هُوَ أَبُو عَامِرِ بْنُ صَيْفِيّ وَكَانَ يَلْبَسُ الْمُسُوحَ فِي الجاهلية، فكفر بمحمد ﷺ "[٣] و لعل الاسم الموصول يساعد على انطباقها على أيٍّ من المذكورين في التفسير ، فهي وإن كانت تروي قصة أحدهم بعينه ، فلا يمتنع أن يوجد مثله في عصر آخر ، و هذا من فوائد القصص القرآني ، فالقرآن يعرض صورًا من حياة السابقين " و يستخلص منها العبر والحكم و يحذر الناس أن يقعوا فيما وقعت فيه تلك الأمم من طغيانٍ مالي أو استبداد سياسي و تكذيب و جحودٍ و عصيان وفسوق فحاق بهم العذاب " [٤] وما يقال في أمثال هذه النماذج السلبية ، يقال في النماذج الإيجابية كالفتية من

١ سورو الأعراف ، الآية رقم ١٧٥ .

٢ الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (٣/ ٦١٠)

٣ فتح القدير للشوكاني (٢/ ٣٠١)

٤ النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ ، حسن سلمان ، ص٥٤ .

أصحاب الكهف ، فالآيات تروي قصتهم و لكنها لم تسميهم ؛ لاحتمال أن يوجد أمثالهم في عصور تالية مقدمةً

بهم " خلاصات التجارب البشرية عبرًا يسير على هديها أولو الألباب " [١] ويقتدون بها.

٢ – <u>النبأ</u>.

النبأ " خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غَلَبَة ظنّ، ولا يقال للخبر في الأصل نَبَأٌ حتى يتضمّن هذه الأشياء الثّلاثة، وحقّ الخبر الذي يقال فيه نَبَأٌ أن يتعرّى عن الكذب كالتّواتر وخبرالله ﷻ وخبر النبيّ ﷺ " . [٢] وقد وردت هذه اللفظة مفردة وجمعًا في القرآن الكريم في سياق الإنباء عن الرسل والأقوام السابقين.

- **<u>في سياق أنباء الرسل والأنبياء</u>.**

ارتبط المفرد منها بفعل التلاوة ؛ إذ يسبقها واحدٌ من الفعلين " اتل ، نتلو"، مع ما فيهما من دلالة اتباع الوحي بقراءته و تصديقه ، منه قوله ﷻ : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ . . .﴾ [٣] ، و قوله ﷻ : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [٤] و قوله ﷻ : ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٥] ، كما يلحظ تعلق هذا الفعل بالجار و المجرور " بالحق " ؛ لتكون الآية بذلك فاتحة قصة رسولٍ من الرسل ، ومشيرة

---

١ التفسير الإسلامي للتاريخ ، د.عماد الدين خليل ، ص١٠٦ .

٢ المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٨٨ ، ٧٨٩)

٣ سورة يونس ٧١ .

٤ سورة الشعراء ، الآية رقم ٦٩ .

٥ سورة القصص ، الآية رقم ٣ .

إلى حقيقة الأحداث وواقعيتها . نجد ذلك عندما تجمع الكلمة – أيضًا – يقول ﷻ : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١] . ويلاحظ تصاحب الفعل نقص مع الأنباء؛ ليشير بهما معًا إلى الحديث عن قصص الأنبياء وتاريخهم، كما يشير بـ " الحق " إلى ما في الأنباء من الحقيقة والمصداقية والاعتبار في أنباء الرسل عامةً.

- **<u>في سياق أنباء غير الأنبياء من البشر .</u>**

ذكرنا أن النبأ يشير إلى الخبر الذي يحصل به علم أو غَلَبَة ظنّ ؛ لهذا أورد الحق ﷻ هذه اللفظة في بعض الآيات التي تعرض للقصص الغابرة الموغلة في القدم ؛ لأن العلم فيها يعود إليه وحده ﷻ ، من ذلك قوله ﷻ : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [٢] و المصاحبة بين الأمر " اتل " ، " نبأ " المفردة ، " الحق " ظاهرة في الآية ، تعرفنا قصةً ضاربة في القدم ، و فيها يأمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن " اقصص خَبَر ابنَيْ آدم قابيل وهابيل ، وهو خبرٌ حقٌّ ، حين قَدَّم كلٌّ منهما قربانًا إلى الله ﷻ فتقبَّل الله قُربان هابيل لأنه كان تقيًّا ، ولم يتقبَّل قُربان قابيل لأنه لم يكن تقيًّا ، فحسد قابيلُ أخاه، وقال: لأقتلنَّك، فَردَّ هابيل: إنما يتقبل الله ممن يخشونه " [٣] إلى آخر القصة ، وهي ليست ممتنعة التكرار ، بل تكررت كثيرًا على مدار تاريخ البشرية ؛ لذا يورد الإمام البخاري قوله ﷺ : [٤] "لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ

١ سورة هود ، الآية رقم ١٢٠ .

٢ سورة المائدة ، الآية رقم ٢٧ .

٣ التفسير الميسر (١/ ١١٢)

٤ صحيح البخاري (٩/ ١٠٣)

تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ " وأخرج الطبري عن الحسن : " إن ابني آدم ضُرِبا مثلا لهذه الأمة فخذوا بالخير منهما"[1] والحقﷻ بذلك يجعل القرآن " مصدرًا من مصادر المعرفة البشرية " [2]

- **في سياق أنباء القرى السابقة.**

ولأن هذه القرى ضاربة في القدم، و عوقبت بعذاب الاستئصال، لم يكن ليخبر الرسول ﷺ بالحق من أخبارها إلا الله ﷻ ؛ وهذا ما ورد في عدة سور كريمة ، عقب إيراد قصص هذه القرى و أقوامها مع رسلهم ، يقول ﷻ : ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [3] الآية الكريمة من سورة الأعراف التي " أطنبت في ذكر الأمم التي تمردت على الوحي فصرعها بغيها "[4] مثل قوم نوحٍ عليه السلام وعاد وثمود و مدين و قوم لوطٍ عليه السلام ، وهؤلاء جميعًا كفروا بالرسل عليهم السلام و جحدوا بما جاءوا به . و الجدير بالملاحظة هذا التلازم بين الفعل نقص و أنباء القرى في الآية الكريمة، فقد تكرر في سور أخرى، منها قولهﷻ : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيد﴾ [5] ، والآية من سورة هود التي تنقلت في القصص من نبأ قوم إلى قوم من الأقوام الغابرين .

---

١ تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٠/ ٢٣٠)

٢ النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ ، حسن سلمان ، ص٣٠ .

٣ سورة الأعراف ، الآية رقم ١٠١ .

٤ نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ، الشيخ محمد الغزالي ، ص١١٨ .

٥ سورة هود ، الآية رقم ١٠٠ .

وقد سُبِقت الآية التي بين أيدينا بآية أخرى تلفت إلى تلك الأنباء ، يقول فيها ﷻ : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١] و الفعل مع الأنباء – هنا – نوحي والتكرار يؤكد على أن تلك الأحداث مما وقع في الماضي ، فهي من الغيب الزماني الذي فصلته السورة من "أحوال الأمم مع رسلها ؛ ليعلم صاحب الرسالة الخاتمة ﷺ أنه لا جديد في تكذيب قريش له ، فالصراع بين الحق و الباطل أزلي لا فكاك منه ، ولكن النتائج الحاسمة تنصف المؤمنين و تعز المتقين " [٢]

ويقترب من لفظ الأنباء في القرآن، لفظ الأخبار، فالقرآن الكريم استعمل النبأ والخبر " بمعنى التحدث عن الماضي، وإن كان قد فرق بينهما في المجال الذي استعملا فيه جريا على ما قام عليه نظمه من دقةٍ وإحكام وإعجاز، فاستعمل النبأ والأنباء في الإخبار عن الأحداث البعيدة زمانًا ومكانًا، على حين استعمل الخبر والأخبار في الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع، أو التي لا تزال مشاهدها قائمةً ماثلة للعيان " [٣]

من ذلك قولهﷻ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [٤]

والخبر في الآية، يشير إلى القرب المكاني للنار التي آنسها موسىعليه السلام وأراد الاستخبار عنها[٥]، كما استعمل اللفظ نفسه في أخبار من عاصرهﷺ،

---

١ سورة هود ، الآية رقم ٤٩ .

٢ نحو تفسير موضوعي لسورالقرآن الكريم ، الشيخ محمد الغزالي ، ص١٧٤ .

٣ قصص القرآن ، د. محمد بكر إسماعيل ، ص٧ .

٤ سورة النمل ، الآية رقم ٧ .

٥ و قد يشير إلى التقارب الزمني بين عهد نبي الله موسى عليه السلام و عهد رسول الله ﷺ .

يقول ﷻ: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [1]

الآية الكريمة تعرض لاعتذار المنافقين الظاهري وعذرهم الوهمي، و الرد الواجب عليهم بألا يعتذروا كذبًا، فالله ﷻ نبأ رسوله ﷺ بالصادق من نبأهم " فلم يبق للاعتذار فائدة لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله ﷻ " [2]

٣- <u>الأحاديث.</u>

الحديث: " كلّ كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه " [3]والحديث المقصود هنا ما يصلنا عن طريق الوحي من أحاديث الرسل عليهم السلام والأمم لا غيره[4]. واستقراء الآيات التي وردت فيها يبين أنها تشير إلى أعظم الأحداث في هذه القصص:

- **<u>في سياق الحديث عن قصص الرسل عليهم السلام.</u>**

وردت في سياق قصة موسى عليه السلام مفردةً عدة مرات ، من ذلك قوله ﷻ : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [5]، و الآية تعرض قصته عليه السلام بعد عودته من مدين ووصوله للواد المقدس طوى ؛ حيث اصطفاه الله برسالته و بكلامه ﷻ ، و لاشك أنها من أعظم لحظات النبوة و تشير إلى حديث عجب ؛ إذ قال عليه السلام لأهله : " أَقِيمُوا هَاهُنَا إِنِّي أَبْصَرْتُ شُعْلَةٍ مِنْ نَارٍ ... فَلَمَّا أَتَاهَا رَأَى شَجَرَةً خَضْرَاءَ مِنْ

---

١ سورة التوبة ، الآية رقم ٩٤ .

٢ تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٤٨)

٣ المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٢٢)

٤ لأن تلك اللفظة وردت في القرآن في عدة سياقات

٥ سورة طه ، الآية رقم ٩

أَسْفَلِهَا إِلَى أَعْلَاهَا، أَطَافَتْ بِهَا نَارٌ بيضاء تتقد كأضوأ مَا يَكُونُ، فَلَا ضَوْءُ النَّارِ يُغَيِّرُ خُضْرَةَ الشَّجَرَةِ ، وَلَا خُضْرَةُ الشَّجَرَةِ تُغَيِّرُ ضَوْءَ النَّارِ " [١]

ومنها قوله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [٢] الآية الكريمة بداية حديث عجيب لهؤلاء الضيف وهم الملائكة " جبريل ومكائيل وإسرافيل وأتباع لهم من الملائكة " [٣]، كان أمرهم عجيب ؛ إذ مروا بسيدنا إبراهيم عليه السلام في طريقهم إلى سيدنا لوطٍ عليه السلام و قومه ؛ لإنجائه و إنزال العقاب بهم ؛ فبشروه و زوجه بالغلام على الكبروالعقم و قد ناسب عظم الحديث، الاستفتاح بالاستفهام التقريري في كلٍّ؛ ففيه تفخيم لحديثهم عليه السلام، كما أنه " تنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ وإنما عرفه بالوحي " [٤]

- **<u>في سياق قصص الأمم والأقوام الذين نزل بهم عقاب الله.</u>**

ووردت اللفظة في هذا السياق جمعًا " أحاديث " ومنه قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [٥]

الآية من سورة المؤمنون، وهي من المكي ترجع " بالناس إلى الماضي البعيد، تحكي جحود الأوائل لفضل الله وتمردهم على هداياته وتكذيبهم لرسله، فذكرت نوحًا وقومه وهودًا وقومه "[٦]. و الملاحظ أن سورة المؤمنون أجملت

---

١ تفسير البغوي (٥/ ٢٦٥)

٢ سورة الذاريات ، الآية رقم ٢٤ .

٣ تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ١٧٧)

٤ تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل (٣/ ٣٧٥)

٥ سورة المؤمنون ، الآية رقم ٤٤ .

٦ نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي ، ص٢٦٨ .

ما فصلته سور أخرى من ذكر الرسل و أقوامهم ، و ما حل بالكافرين من عذابات الاستئصال بالآية الكريمة التي بين أيدينا ، و" ذكر " ثُمَّ " لتطاول الأزمنة وقوله ﷻ : تَتْرَا ... أي أرسلنا رسلنا وترا ، واحدا بعد واحد ، الضمير [1] يعود إلى المكذبين، والإتباع إنما هو إتباع المكذبين بعضهم بالإهلاك ، فتوالى الإرسال وتوالى الجحود ، وتوالى الهلاك من بعد ذلك والمعنى أنهم بعد هلاكهم المتوالي في العصور والأزمان صاروا أحاديث للناس يعتبر بها من يعتبر، ويستبصر بها من يستبصر، ويتلهى بها من يتلهى بأخبار الأولين " .[2]

و جمعت الأحاديث ؛ لتعدد قصص الإهلاك ، ناسب هذا أن الأحاديث في اللغة " لا تقال إلا في الشر " [3] ، خاصة إذا سبقت بالجعل ، فقلّما " يستعمل الجعل حديثا إلا في الشر" [4] ، و يؤكده قوله ﷻ : ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [5] ، الآية الكريمة تحكي عن قوم سبأٍ الذين كرهوا الأمن و الإيمان و شكر الله عليهما ، فجعلهم الله حديث سوءٍ و اعتبار بدليل ما أتبعه من قوله " وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ " و المعنى " فرقناهم في البلاد كل التفريق ، وصيرناهم مضرباً للمثل ؛ يقال: تفرقوا أيدي سبا وذهبوا أيدي سبا " [6] . أخيرًا نلفت النظر إلى ربط القرآن بين الأحاديث و أماكنها أو أشخاصها للتأكيد على وقوعها ، ففي الآية التي بين

---

١ في بعضهم .

٢ زهرة التفاسير للشيخ محمد أبو زهرة ، (١٠/ ٥٠٧٧)

٣ أوضح التفاسير ، محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب ، (١/ ٤١٦)

٤ تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ١٤٤)

٥ سورة سبأ ، الآية رقم ١٩ .

٦ أوضح التفاسير (١/ ٥٢٣)

أيدينا يربطها بسبأ ، و هي من ممالك اليمن القديمة ، و في آياتٍ أخرى يشير بأسماء الأقوام والشخصيات إلى أماكن أخرى ، كما في قوله ﷻ : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُود .فِرْعَوْنَ وَثَمُود﴾ [١] ففرعون و ثمود تشير إلى وقوع هذا المتحدث به في مكان الفراعنة ومكان قوم ثمود .

وهذا كله يؤكد على أمرين: الإشارة إلى التاريخ، والحقيقة الصادقة في هذه الوقائع والأحداث المذكورة.

ب–<u>الألفاظ الدالة على الشخصيات.</u>

أشار القصص القرآني إلى ملوكٍ وتبابعة وفراعنة، وإلى دور الملأ والكبراء في إضلال الضعفاء، وتراجعهم القول في الآخرة، وسوف نركز من الشخصيات على:

١ – <u>الرسل والأنبياء.</u>

من أهم الشخصيات التي تقابلنا في القرآن الكريم. والإرسال يعني " التَّوْجِيهُ، وبِهِ فُسِّرَ إِرْسالُ اللهِ ﷻ أَنْبِياءَهُ عليهم السلام كأَنَّهُ وَجَّهَ إِلَيْهِم أَنْ أَنْذِرُوا عِبادِي"[٢] ، وقريب منه أنهم عليهم السلام موجهون للعباد برسالة السماء.

أما النبي، فمشتق من " النبأ و هو الخبر الذي له شأن، و إنما سمي النبي نبيًّا؛ لأنه مخبَر و مخبِر، مخبَر أي أن الله ﷻ أخبره وأوحى إليه ، و مخبِر أي يخبر عن الله ﷻ وحيه و أمره ، و قيل النُّبوة مشتقة من النَّبوة ، وهي ما ارتفع من الأرض " [٣] ؛ و ما ذلك إلا " لرِفْعة محلِّه[١] عن سائر الناس " . [٢]

---

١ سورة البروج ، الآيتان رقم ١٧ ، ١٨ .

٢ تاج العروس (٢٩/ ٧٢)

٣ المدخل إلى الثقافة الإسلامية ، تأليف مجموعةٍ من أعضاء هيئة التدريس جامعة الملك سعود ، ص١١٨ ، مدار الوطن للنشر ، ط١٦ سنة ١٤٣٣ – ٢٠١٢

وعند تتبع آيات القرآن الكريم، نجد لفظة الرسل وردت فيها حوالي أربعًا وثلاثين مرة، فضلا عن تصاريفها الأخرى، كمفرد الكلمة الذي ورد ما يزيد على المائة مرة، وأفعالها المتنوعة بين ماضٍ ومضارع وأمر، فهو الشيء الكثير. أما النبيين أو الأنبياء، فوردتا في القرآن الكريم، الأولى في ثلاثة عشر موضعًا من القرآن، والثانية في خمسة مواضع منه. والملاحظ أن تلك اللفظة وأختيها لازمتها عدة ظواهر وأحداث تؤكد وقوعها تاريخيًّا، من ذلك:

- **ذكر أسماء الرسل والأنبياء** عليهم السلام.

متفرقين في بعض السور القرآنية الكريمة، و مجتمعين في سورٍ أخرى، فمن ذكرهم مجتمعين، ما جاء في قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيم . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِين. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِين. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِين. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم﴾[3] ويدخل في ذلك ما جاء في سورة مريم التي ورد فيها الأمر بذكر مجموعةٍ من النبيّين، وصفوا بعدة أوصاف كالصديقية والنبوة والإرسال، يقول فيها تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[4]

=

١ أي النبي ، أي نبي عليهم السلام جميعًا .

٢ المفردات في غريب القرآن ، للأصفهاني ، (ص: ٧٩٠)

٣ سورة الأنعام ، الآيات من ٨٣ : ٨٧ .

٤ سورة مريم ٤١ .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾[١] و من ذكرهم متفرقين، ما نجد في سورة يوسف من قصتهعليه السلام، وما نجد في سورة نوحٍ من قصته عليه السلام، وورود الرسل و الأنبياء عليهم السلام بأسمائهم ، و الأمر بذكرهم ، دليلٌ على وجودهم الحقيقي ، و إثبات لدورهم في إرشاد العباد و إصلاحهم في تاريخ البشرية . إلى جانب ذلك اقترن ذكرهم عليهم السلام ببعض الظواهر و السنن ، منها :

- **<u>الكثرة والتتابع.</u>**

يدل على ذلك آيات كثيرة ، يقول الحق تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [٢] ، ويقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ [٣] ، و يقول تعالى : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾[٤] ، كما يبين الحق تعالى في القرآن أنه أعلمنا قصص رسل و سكت عن قصص آخرين : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[٥] وورد في السنة ما يشير إلى تلك الكثرة، ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه الطويل، قال : " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمِ الْأَنْبِيَاءُ قَالَ مِائَةُ أَلْفٍ وَعِشْرُونَ أَلْفًا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمِ الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ قَالَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَنْ كَانَ أَوَّلُهُمْ قَالَ آدَمُ عليه السلام ... قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمْ كِتَابًا أَنْزَلَهُ اللَّهُ قَالَ مِائَةُ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ ..." [٦]

---

١ سورة مريم ٥١

٢ سورة آل عمران ، الآية رقم ١٤٤ .

٣ سورة البقرة ، الآية رقم ٨٧ .

٤ سورة الزخرف ٦ .

٥ سورة غافر ، الآية رقم ٧٨ .

٦ صحيح ابن حبان – مخرجا (٢/ ٧٧)

فالأنبياء عليهم السلام كثرة لها دعوة واحدة " وَلَا شكّ أَن الْجمع الْعَظِيم مَتى تَفَرَّقت أوطانهم وقبائلهم وأزمانهم ، وَلم يَكُونُوا من أهل الصناعات النظرية والرياضات الفلسفية والقوانين المنطقية ثمَّ اتَّفقُوا على الْقطع بِصِحَّة أَمر ، علمنَا علما ضَرُورِيًّا أَنهم مَا تواطئوا على التعمد للمباهتة والتجري على التَّدْلِيس وَأَنه مَا جمع متفرقات عقائدهم إِلَّا صدق مَا ادعوهُ من شرِيف علمهمْ وحالهم وَصِحَّة مَا بنوا عَلَيْهِ دينهم ويقينهم ... وَحِينَئِذٍ لَا تردد الْعُقُول وَلَا توقف الأذهان عَن الْجَزْم بصدقهم وثلج الصُّدُور لصِحَّة خبرهم فَكيف إِذا عضد هَذَا الْجَمِيع الْعَظِيم من الْبَرَاهِين النيرة والقرائن الْوَاضِحَة والشواهد الصادقة مَا لم يحصره الأذكياء و العارفون على مرور الدهور و القرون " . [1]

- **مهام الرسل والأنبياء .**

أشار لذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [2] ، فاستقبال الوحي أولى مهام النبيين ؛ إذ عليه تترتب مهمة الدعوة من التبشير و الإنذار في آية تالية : ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [3] ، فالآية الكريمة " بيان لعمل الرسل مبينين الحق داعين إليه ، يبشرون الطائعين بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وينذرون

١ إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات لابن الوزير (ص: ٧٣) ، بتصرفٍ .

٢ سورة النساء ، الآية رقم ١٦٣ .

٣ سورة النساء ، الآية رقم ١٦٥ .

العاصين بسوء العقبى وإن وَاتاهم نفع في الدنيا ،فبعث الرسل لكي يكون الذين يعصون على علم بما يستقبلهم والذين يطيعون على بينة بأوامر ربهم" [١]

و التبشير و الإنذار يأتي ضمن مهمة عامة للرسل عليهم السلام، هي تبليغ الرسالة، يقول ﷻ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [٢] . أما النبي ، فاستقراء الآيات يبين أنه يقوم إلى جانب ذلك بمهام أخرى ، فالنبي يقوم بتطبيق الشرع و تنفيذ الأمر ويتبعه في ذلك من آمن به ، يقول ﷻ : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [٣] ، و قوله ﷻ : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [٤] و قد رأينا القرآن الكريم ينسب إلى رسول الله ﷺ بعض هذه المهام ، مخاطبًا إياه بصفة النبي ، يقول ﷻ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [٥] ، كما نسب بعض المهام إلى النبيين من بني إسرائيل عليهم السلام بعض المهام ، يقول ﷻ : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ [٦]

---

١ زهرة التفاسير للشيخ محمد أبو زهرة ، (٤/ ١٩٦٧)

٢ سورة الأنبياء ٢٥ .

٣ سورة آل عمران:١٤٦ .

٤ سورة آل عمران ١٦١ .

٥ سورة التوبة ٧٣ .

٦ سورة المائدة ٤٤ .

و من أهم ما كان عليهم الميثاق ، ورد في قوله ﷻ : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1] فالميثاق أخذ على " النبيين وأممهم، فاكتفى بذكر الأنبياء عن ذكر الأمم، لأن في أخذ الميثاق على المتبوع دلالة على أخذه على التابع " [2] ، فما بعث الله نبيًّا " إلا أخذ عليه العهد، إن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه . وقيل: أخذ ميثاق الأنبياء أن يصدق بعضُهم بعضاً " [3]

- **فرض الله ﷻ الإيمان بالرسل عليهم السلام و عدم التفريق بينهم .**

يتضح هذا المعنى في ختام سورة البقرة : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [4] ، و قوله ﷻ : ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [5] فالحق ﷻ يجعل من الإيمان بالرسل عليهم السلام – جميعًا جميعًا بالغيب وعدم التفريق بينهم ركنًا من أركان الإيمان ، كما جعل تكذيب واحدٍ منهم تكذيبًا للرسل جميعًا ، يقول ﷻ : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[6] فقوم

---

١ سورة آل عمران ٨١ .

٢ زاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٩٩)

٣ زاد المسير في علم التفسير (١/ ٣٠٠)

٤ سورة البقرة ، الآية رقم ٢٨٥ .

٥ سورة آل عمران ٨٤ .

٦ سورة الشعراء ، الآية رقم ١٠٥ .

نوحٍ عليه السلام لم يعاصروا من الأنبياء إلا نوحًا عليه السلام ، و لكن الآية أخبرت أنهم كذبوا المرسلين جميعًا ؛ لأن الرسل عليهم السلام دعوتهم واحدة و دينهم واحد " كله من عند الله من عهد نوح عليه السلام إلى عهد رسول الله ﷺ ، و أن المؤمنين برسل الله كلهم أمة واحدة " [١] ، و كذا تكذيب أحدهم يعد تكذيبًا لهم جميعًا ، و المكذبون من القديم للحديث كذا أمة واحدة يجمعها الكفر والتكذيب، و إن اختلفت أزمانهم.

٢ – <u>الأقوام والأمم.</u>

من الشخصيات الاعتبارية التي اقترنت بها أحداث كثيرة في القصص القرآني؛ إذ تدل على مجتمعاتٍ بأكملها ، فالقوم تدل على جمعٍ " وَلَا يَكُونُ إِلَّا لِلرِّجَالِ " [٢] كما في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [٣] فمايزت الآية بين القوم بوصفهم رجالاً و النساء ، ولا يمتنع – في بحثنا – أن يراد به الرجال والنساء ، ففي " عامّة القرآن أريد به الرجال والنّساء جميعا " [٤] ولم يَرِد منها في القرآن جمع جمع الجمع [٥] ، بل وردت قوم فقط في مواضع زادت عن ثلاثمائة موضعٍ ، كثير منها في سياق قصص الرسل و لعل أهم ما يتعلق منها بهذا البحث ، ما جاء مضافًا إلى اسمٍ ظاهر أو ضمير من الضمائر ؛ فكان الاسم الظاهر اسم نبي من الأنبياء عليهم السلام أو حاكم أو ملك ، من ذلك يقول تعالى :﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ

١ النظرية القرآنية لتفسير التاريخ ، حسن سلمان ، ص٧٤ .

٢ مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٤٣)

٣ سورة الحجرات ، الآية رقم ١١ .

٤ المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٦٩٣) ، بتصرفٍ بسيط .

٥ أَقْوَامٌ وَأَقَاوِمُ .

وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَاد . وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَاب ﴾[1] ، فالآيتان تذكران أقوام بعض الرسل عليهم السلام ، ومنه قوله ﷻ : ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِين . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُون ﴾[2] و الآيتان تتعرضان لفرعون وقومه في سياق قصة سيدنا موسى عليه السلام ، كما وردت في قوله ﷻ : ﴿ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيد ﴾[3] الآية الكريمة تعرض لتكذيب قوم تبع ، و التبع لقب ملك اليمن قديمًا ، فـ " مُلُوكُ الْيَمَنِ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُسَمَّى تُبَّعًا ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا كَانُوا يَتْبَعُونَهُ " .[4]

أما الأمة في اللغة: " كل جماعة يجمعهم أمر ما إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا "[5]، ومنها قوله ﷻ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُون ﴾[6]

وقد وردت في القرآن الكريم مفردة وجمعًا، بضعًا وستين مرة، كثير منها في سياق قصص الرسل عليهم السلام؛ إذ تعلق بهم أحداث كثيرة في هذه القصص، منها:

---

١ سورة ص ، الآيتان رقم ١٢ ، ١٣ .

٢ سورة الشعراء ، الآيتان رقم ١٠ ، ١١ .

٣ سورة ق الآية رقم ١٤ .

٤ تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٧/ ٦٦٢)

٥ المفردات في غريب القرآن (ص: ٨٦)

٦ سورة الأنعام ، الآية رقم ٣٨ .

- **لم يخلُ قوم من رسول، ولا أمة من نذير.**

فالحق ﷻ تابع في إرسال الرسل عليهم السلام إلى أقوامهم؛ ليذكروا بكلمة التوحيد التي نزل بها سيدنا آدم عليه السلام، والتي غيرها بنوه بالشرك وعبادة الأصنام، يقول ﷻ: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[١] " والمعنى: إنما أنت منذر ولكل أمة سلفت هاد، أي نبي يدعوهم فليس أمرك يا محمد ببدع ولا منكر "[٢] ويقول ﷻ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[٣] وتشير كلٌّ منهما إلى عدم خلو الأمم منهم عليهم السلام؛ للهداية والإنذار فما " من أمة سبقت إلا مضى فيها رسول ينذرهم سوء عاقبة الكفران ويخوفهم وخامة الظلم والطغيان "[٤] وهما متقاربتا المعنى، حتى نرى ورود بعض الألفاظ فيهما معًا مثل منذر في الآية الأولى، و نذير في الآية الثانية فالهداية – في فاصلة الآية الأولى –من الرسول عليه السلام أن يبين لقومه الحق و يبشر من يتبعه ، وينذر المعاند والكافر وجاءت في صدر الآية الثانية وفاصلتها.

- **كفر معظم الأقوام وتكذيبهم الرسل عليهم السلام.**

وهي سنة عمت في أقوام الرسل ، يقول الحق ﷻ : ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾[٥] ، الآية في موقف عاد ، و آيات أخرى عرضت للموقف نفسه الذي تكرر مع كل رسولٍ ، يقول ﷻ : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن

---

١ سورة الرعد ، الآية رقم٧ .

٢ تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٢٩٧)

٣ سورة فاطر ، الآية رقم ٢٤ .

٤ أوضح التفاسير (١/ ٥٣٢)

٥ سورة هود ، الآية رقم ٦٠ .

بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[1] ، و قوله ﷻ : ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينِ﴾[2]

- **توالي عقاب الأقوام والأمم مع توالي التكذيب.**

كما تتابع إرسال الرسل عليهم السلام لهداية البشر، تتابع تكذيب الأقوام، وبناء عليه تتابع العقاب والإهلاك وحق فيهم وعيد الله ﷻ، جاء ذلك في آيات كثيرة، منها قوله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ . وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابكَمْإِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[3] الآية تبين أنهم أحزابٌ وإن اختلفت عصورهم فاجتمعوا على موقف واحد من تكذيب الرسل عليهم السلام، وتذكر " تكذيبهم أولا في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستئنائية، فأوضحه فيها بأنّ كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل، لأنهم إذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبوهم جميعا. وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أوّلاوبالاستثنائية ثانيا، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص، أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه، ثم قال فَحَقَّ عِقابِ، أي فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم ".[4]

و العقاب لم ينزل بهؤلاء بشكل فجائي ، بل كان الأنبياء و الصالحون يحذرون الأقوام تلك العاقبة حتى صار هذا الأخذ[5] سنة في الخلق يعتبر بها من

---

١ سورة غافر ، الآية رقم ٥ .

٢ سورة العنكبوت ، الآية رقم ١٨ .

٣ سورة ص ، الآيات من ١٢- ١٤ .

٤تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٧٦)

٥ أقصد أخذهم بذنوبهم ، أي العقاب .

كان له قلب ، يقول ﷻ : ﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيد ﴾[١] ، فالآية الكريمة في سياق قصة شعيب عليه السلام ، وعلى لسانه يحذر قومه عاقبة تكذيبهم و تهكمهم ، فيقول : " لا يكسبنكم مخالفتي أَن يُصِيبَكُم العذاب مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ، وقد أهلكوا بالغرق ، أَوْ قَوْمَ هُودٍ ، وقد أهلكوا بالريح العقيم أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وقد أهلكوا بالرجفة ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ؛ لقرب زمنهم من زمنكم أو ديارهم من دياركم ؛ وقد أهلكوا بالاستئصال ، فجعل عالي قراهم سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل " [٢] ، كما جاء هذا المعنى في قوله ﷻ على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَاب. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَاد ﴾[٣] ، فهو يخوف قومه عاقبة من سبقهم من الأمم، والمعنى " أخاف أن تُقيموا على كفركم فينزلَ بكم من العذاب مِثْلُ ما نزل بالأُمم المكذِّبة رسلهم " .[٤]

ت- <u>الألفاظ الدالة على أماكنهم.</u>

١ – القرى.

وردت هذه اللفظة في سياق القصص القرآني مفردة و جمعًا فيما يزيد عن خمسين موضعًا ، و القرية لغةً " كل مَكَان اتَّصَلت فِيهِ الأبنية وَاتخذ قراراً " [٥] ، و قد ارتبطت لغة بلفظة **المدينة** ، فقيل : " كل مَكَان اتَّصَلت فِيهِ الابنية وَاتخذ

١ سورة هود ، الآية رقم ٨٩ .

٢ أوضح التفاسير (١/ ٢٧٥)

٣ سورة غافر ، الآيتان رقم ٣٠ ، ٣١ .

٤ زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٦)

٥ كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة العربية (ص: ١٧٢)

قرارا ... وَيَقَع ذَلِك على المدن وَغَيرهَا " [1] و ارتبطتا في القرآن ، يقول الحق ﷻ في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح : ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [2] ، ثم يقول ﷻ في بيان الأمر لموسى عليه السلام : ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [3] ، جاء في فتح القدير : " وَأَمَّا الْجِدارُ يَعْنِي الَّذِي أَصْلَحَهُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ هِيَ الْقَرْيَةُ الْمَذْكُورَةُ سَابِقًا، وَفِيهِ جَوَازُ إِطْلَاقِ اسْمِ الْمَدِينَةِ عَلَى الْقَرْيَةِ لُغَةً " .[4] كما يقول ﷻ في قصة أصحاب القرية : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [5] ثم قال ﷻ في سياق القصة : ﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [6] و فيها إشارة لطيفة فلما كان " الأمر بيد الله ، فهو يهدي البعيد في البقعة والنسب إذا أراد، ويضل القريب فيهما إن شاء، وكان بعد الدار ملزوماً في الغالب لبعد النسب، قدم مكان المجيء على فاعله بياناً لأن الدعاء نفع الأقصى ولم ينفع الأدنى ، فقال: وجاء من أقصى ، أي أبعد ؛ ولأجل هذا الغرض عدل عن التعبير بالقرية كما تقدم ، وقال:

---

١ المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٢ سورة الكهف ٧٧ .

٣ سورة الكهف ٨٢ .

٤ فتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٦٠)

٥ سورة يس ١٣ .

٦ سورة يس ٢٠ .

المدينة؛ لأنها أدل على الكبر المستلزم لبعد الأطراف وجمع الأخلاط " [١]

وإذا أنعمنا النظر، وجدنا الكلمة مفردة وجمعًا ارتبطت بما ارتبط به الأقوام والأمم من قبل، وهي:

- **الإنذار**، فقد أنذروا من قبل رسلهم وحذروهم من ضلالاتهم، يقولﷻ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُون. ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِين﴾[٢]، يخبر الحق ﷻعَنْ عَدْلِهِ فِي خُلُقِهِ " أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ وَالْإِنْذَارِ لَهُمْ، وَبِعْثَةِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، وقيام الحجة عليهم" [٣]
- **الهلاك:** وهو المصير الذي لحق أهل القرى بسبب فسادهم فضلاً عن تكذيبهم الرسل عليهم السلام وكفرهم بالله ﷻ يقول ﷻ : ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُون﴾ [٤] ، و هو ما تأكد في السورة نفسها في مواضع أخرى ، يقول ﷻ : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُون . أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُون﴾ [٥]

فالإهلاك يكون في الموعد الذي يحدده الله، يقولﷻ : ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُوم﴾ [٦] ، ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [٧] .

---

١ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ١٠٩)

٢ سورة الشعراء ، الآية رقم ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

٣ تفسير ابن كثير ط العلمية (٦/ ١٤٨)

٤ سورة الأعراف ، الآية رقم ٤ .

٥ سورة الأعراف ، الآيتان رقم ٩٧ ، ٩٨ .

٦ سورة الحجر ، الآية رقم ٤ .

٧ سورة الكهف ، الآية رقم ٥٩ .

- **الاستبدال:** يقول ﷻ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾[1]، الآية تشير إلى مفهوم الاستبدال أوالاستخلاف، أو ما يمكن أن يطلق عليه التداول الحضاري، فالحق ﷻ ذرأ البشر في الأرض ؛ ليبتليهم أيهم يحسن العمل ، فمن أحسن استعمله ، و من أفسد استبدله بآخرين .

٢ –المساكن.

عرض القصص القرآني لمساكن الظالمين ، كيف خوت من بعدهم ، وربطها بسنة الاعتبار في مواضع ورودها في سياق البحث في حوالي خمسة عشر ، يقول الحق ﷻ : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾[2] ، و فيها " يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ للرسل كيف أبادهم ، وأخذهم بالانتقام منهم ، فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف، وهي قريبة من حضر موت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يَسْكُنُونَ الْحِجْرَ قَرِيبًا مِنْ وَادِي الْقُرَى، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَسَاكِنَهُمَا جَيِّدًا، وَتَمُرُّ عَلَيْهَا كَثِيرًا " .[3] و كأن استعمال المساكن يشير إلى قربها المكاني من المخاطبين من أهل مكة ؛ تأكيدًا للغاية من ذكرها "الاعتبار " فعاد وثمود كانتا قريبتين منهم ، فخوتا بعدما كانتا تموج بالحياة ، جرى ذلك عليهم بظلمهم ، و لذا تكرر في القرآن لفت النظر إلى خوائها بعدهم و ضرورة اعتبار من يمشي في هذه المساكن الخاوية والتفكر في أسباب هذا لاجتنابها ؛ لتجنب المصير الذي أدت إليه ، يقول ﷻ : ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ

---

١ سورة الأنبياء ، الآية رقم ١١ .

٢ سورة العنكبوت ، الآية رقم ٣٨ .

٣ تفسير ابن كثير ط العلمية (٦/ ٢٥١)

فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾[١] ، و قريب منه : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ﴾[٢] يقول الطبري : " أولم يبين لهم إهلاكنا القرون الخالية من قبلهم، سنتنا فيمن سلك سبيلهم من الكفر بآياتنا، فيتعظوا وينزجروا ... كثرة إهلاكنا القرون الماضية من قبلهم يمشون في بلادهم و أرضهم كعادٍ و ثمود "[٣] ، و يعضد معنى الكثرة أن مساكن على " مفاعل "[٤] الدالة على كثرة المساكن التي سمعوا و علموا عن مصيرهم ، فدلهم في كل مرة على آيات الله و سننه في خلقه .

٣- البيوت .

وردت هذه اللفظة فيما يزيد عن خمسين موضعًا، تعلق بالبحث منها ما لا يقل عن عشرة مواضع، ارتبطت فيها بمعاني الاعتبار بهلاك السابقين بعد استئصالهم في بيوتهم، كما تعطى إيحاءً بوقت الأخذ ومكانه؛ إذ أخذوا ليلاً وفي مكان مبيتهم. وجمع الكلمة يدل على كثرة البيوت التي يمرون عليها بما فيها من آية الاعتبار والتعلم، يقول الحق ﷻ في ختام قصة قوم صالح عليه السلام: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٥]

٤-الدار.

وردت هذه اللفظة بتصاريفها ما يقارب خمسين مرة في القرآن الكريم ، جاء بعضها في سياق البحث ؛ إذ تؤكد على ما سبق ذكره من ربط عاقبة بعض

---

١ سورة طه ١٢٨ .

٢ سورة السجدة ٢٦ .

٣ تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٠/ ١٩٥)

٤ صيغة منتهى الجموع .

٥ سورة النمل ، الآية رقم ٥٢

الأمم المهلكة بمكانها وقت الإهلاك ، يقول ﷻ : ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[1] ، و يقول ﷻ : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[2] الأولى في ثمود الذين قتلوا الناقة بعد أن حذرهم و نهاهم صالح عليه السلام ، و الثانية في مدين الذين رفضوا الإيمان بشعيبٍ عليه السلام و عثوا في الأرض مفسدين، فأخذتهم الصيحة ، فأصبحوا " سقوطًا صرعَى لا يتحركون ، لأنهم لا أرواح فيهم "[3] ، و حال الجثوم بعد ذكر الدار تبين التفاوت الكبير؛ إذ تشير الدار إلى " كَثْرَةِ حَرَكَاتِ النَّاسِ فِيهَا " .[4] و كما ربط القرآن تلك اللفظة بجزاء أقوامٍ بأكملهم ، ربطها بعقاب أشخاصٍ بأعينهم ، كقارون الذي جاء فيه قوله ﷻ : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾[5] فهو الذي أنكر فضل الله ﷻ عليه فيما آتاه الله من الكنوز ، و لم يعتبر بمصير القرون السابقة ، فجعله الله عبرة لبني إسرائيل الذين تمنوا مكانه ، و لمن بعدهم بما كان من إهلاكه و الخسف به و بداره " وهي أمر عظيم تجمع خلقاً كثيراً وأثاثاً عظيماً و لئلا يقول قائل: إن الخسف به كان للرغبة في أخذ أمواله "[6] ، والجامع بين النموذجين وحدة الموقف الرافض لهدى الله ﷻ ، ووحدة ووحدة العقاب.

---

١ سورة الأعراف ٧٧ ، ٧٨ .

٢ سورة العنكبوت ٣٧ .

٣ تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٢/ ٥٤٦)

٤ لسان العرب (٤/ ٢٩٨)

٥ سورة القصص ٨١ .

٦ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٤/ ٣٥٨)

٥-الأرض.

وردت هذه اللفظة في القرآن ما يقرب من أربعمائة مرة، ارتبط بعضها بسياق البحث، وجاءت مقترنةً بسنن إلهية عدة، كالاستخلاف والابتلاء والميراث[١]

الاستخلاف: ارتبط بها منذ عهد آدم عليه السلام أول البشر، يقول ﷻ : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[٢] ، ثم عرضت في القرآن على أنها من سنن الله ﷻ في البشر ، يقول ﷻ : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾[٣] والأرض، قد تفهم على اتساعها، فيكون المعنى: " جَعَلَكُمْ تُعَمِّرُونَ الْأَرْضَ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ وقَرْنا بَعْدَ قَرْنٍ وخَلَفا بَعْدَ سَلَف"[٤] سَلَف"[٤] فتتناسب الأرض مع غايتها الأولى ، و هي استخلاف آدم عليه السلام و ذريته في الأرض ، وقد يكون المراد "العرب و يكون ظاهر الكلام أن المراد بالأرض ما هم فيه من جزيرة العرب، وباطنه البشارة بإعلاء دينهم الإسلام على الدين كله وغلبتهم على أكثر أهل الأرض في هذه الأزمان وعلى جميع أهل الأرض في آخر الزمان " [٥] ، كما توالى التذكير بهذا الأمر على لسان الأنبياء ، جاء على لسان هود عليه السلام ينصح قومه قوله ﷻ : ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاء اللّهِ

١ أي التمكين و نصرة المؤمنين على الكافرين .

٢ سورة البقرة الآية رقم ٣٠ .

٣ سورة الأنعام ١٦٥ .

٤ تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ٣٨٤)

٥ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٣٤٤)

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾[1] ، و جاءت على لسان صالحٍ عليه السلام ينصح قومه، يقول ﷻ : ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِين﴾[2]

- **الابتلاء:** فالأرض مكان اختبار البشر وابتلائهم أيهم يحسن عملاً، جاء على لسان موسى عليه السلام قوله لبني إسرائيل: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُون﴾[3] وهو ما كان؛ إذ أهلك الله ﷻ فرعون وجنوده وأورث بني إسرائيل ما شاء من الأرض.
- **الميراث** : و في هذا يبين القرآن الكريم أن ميراث الأرض للمؤمنين المصلحين و أن التداول الحضاري بين البشر، يكون للتمييز بين الخبيث والطيب ، ظهر هذا المعنى في قصص قرآنية كثيرة ، يقول ﷻ في بني إسرائيل : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُون﴾[4] ، و جاء في سياق الإخبار عن عاقبة الأنبياء و تابعيهم ومن كفروا بهم – عامةً – يقول ﷻ :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِين . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن

---

١ سورة الأعراف ، الآية رقم ٦٩ .

٢ سورة الأعراف ، الآية رقم ٧٤ .

٣ سورة الأعراف ١٢٩ .

٤ سورة الأعراف ١٣٧ .

بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيد ﴾[١]، وهي بذلك تُعَدُّ سنة من سنن الله ﷻ مع الرسل عليهم السلام و المؤمنين يقول ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[٢]

- **السير في الأرض** : السير في الأرض يبعث على تعرف خبر السابقين و الاعتبار به ، و لذا جاء بأساليب عدة ، منها الأمر ، يقول ﷻ : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[٣] ، فالأمر لسيدنا محمد ﷺ أن "قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ الْمُسْتَسْخِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ: سَافِرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا وَاسْتَخْبِرُوا لِتَعْرِفُوا مَا حَلَّ بِالْكَفَرَةِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْعِقَابِ وَأَلِيمِ الْعَذَابِ ، وَهَذَا السَّفَرُ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الِاعْتِبَارِ بِآثَارِ مَنْ خَلَا مِنَ الْأُمَمِ وَأَهْلِ الدِّيَارِ، وَالْعَاقِبَةُ آخِرُ الْأَمْرِ " .[٤]

كما جاءت على صيغة الاستفهام التقريري، يقول ﷻ : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾[٥] ، " وَالتَّقْرِيرُ مُوَجَّهٌ لِلَّذِينِ سَارُوا مِنْ قُرَيْشٍ وَنَظَرُوا آثَارَ الْأُمَمِ الَّذِينَ أَبَادَهُمُ اللَّهُ جَزَاءَ تَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ، فَهُمْ شَاهَدُوا ذَلِكَ فِي رِحْلَتَيْهِمْ رِحْلَةِ الشِّتَاءِ وَرِحْلَةِ الصَّيْفِ وَإِنَّهُمْ حَدَّثُوا بِمَا شَاهَدُوهُ مَنْ تَضُمُّهُمْ

١ سورة إبراهيم ١٣ ، ١٤ .
٢ سورة الأنبياء ١٠٥ .
٣ سورة الأنعام ، الآية رقم ١١ .
٤ تفسير القرطبي (٦/ ٣٩٤ ، ٣٩٥)
٥ سورة غافر ، الآية رقم ٢١ .

نَوَادِيهِمْ وَمَجَالِسُهُمْ فَقَدْ صَارَ مَعْلُومًا لِلْجَمِيعِ " [1] و بذا يظهر السير في الأرض دافعًا للاعتبار، بتأمل العواقب الوخيمة التي أصابت من كفر بالله ﷻ و عاند رسله لتجنب فعلهم و مآلهم ، يقول ﷻ : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [2]

ث- الألفاظ الدالة على عصورهم.

١- القرون.

القَرْنُ لغةً : " القوم المُقْتَرِنُونَ في زمن واحد " [3] و : " الأُمَّةُ تأْتي بَعْدَ الأُمَّة ... وَ هل كلِّ زَمَانٍ " [4] و"القَرْن: زَمَنٌ مُعَيَّنٌ أَو أَهْلُ زَمَنٍ مَخْصُوصٍ " [5] ، ، و " اخْتلفُوا فِي تَحْدِيد مُدَّةِ القَرْنِ من عشرةٍ إِلَى مائةٍ وعشرِين " [6] ؛ لأنها " مِقْدَارُ التَّوَسُّطِ فِي أَعمار أَهْلِ الزَّمَانِ، فكأَنه الْمِقْدَارُ الَّذِي يَقْترِنُ فِيهِ أهلُ ذَلِكَ الزَّمَانِ فِي أَعمارهم وأَحوالهم " [7] و في المعجم الوسيط : القرن من الزَّمَان مائَة سنة " [8] ، وبهذا يتبين أن القرن تصح في الزمن و الجيل الذي عاش فيه .

واللفظة تتقارب مع ألفاظ أخرى وردت سابقًا كالأمة، و قد وردت مفردةً وجمعًا في عشرين موضعًا، اقترنت في جلها بسنن الله ﷻ في عمران البشر للأرض، وإهلاك عصاتهم .

---

١ التحرير والتنوير (٢٤/ ١١٩)

٢ سورة الأعراف ١٠٠

٣ المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ص: ٦٦٧)

٤ لسان العرب (١٣/ ٣٣٣)

٥ تاج العروس (٣٥/ ٥٣٠)

٦ تاج العروس (٣٥/ ٥٣٠)

٧ لسان العرب لابن منظور ج١٣ ص٣٣٣ .

٨ المعجم الوسيط (٢/ ٧٣١)

- **الإهلاك:** و فيه يقول ﷻ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [١]
- **الاستبدال:** و فيه يقول ﷻ : ﴿ . . . وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ. ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [٢]

الآيات الكريمة تتحدث عن عاقبة قوم نوح عليه السلام و إغراقهم ، و استخلاف من بعدهم في الأرض ، و معنى الآية الشاهد ، " ثم أنشأنا من بعد أولئك القوم المغرقين الذين كذبوا نبيهم نوحا عليه السلام قَرْناً آخَرِينَ غيرهم " [٣] و في آية أخرى من السورة نفسها ، يقول ﷻ : ﴿ . . . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾ [٤] و اللافت للنظر، إفراد القرن في الآية الأولى ، و جمعها في الثانية ، فطن المفسرون لذلك ، فقال أحدهم : " ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ، جاءتْ قرناً بصيغة المفرد؛ لأن الحديث مقصور على عاد قوم هود عليه السلام ، أما هنا فقال ﷻ: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً ؛ لأن الكلام سيأتي عن أمم ورسالات مختلفة ومتعددة، فجاءت قروناً بصيغة الجمع، متتابعة أو متعاصرة، كما تعاصر إبراهيم ولوط عليهما السلام، وكما تعاصر موسى وشعيب عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام " [٥]، وهذه المعاصرة و ذاك التتابع ، يؤكدان المعنى

١ سورة الإسراء ، الآية رقم ١٧ .
٢ سورة المؤمنون ، الآيات من ٢٩ – ٣١ .
٣ التفسير الوسيط لطنطاوي (١٠/ ٣٠)
٤ سورة المؤمنون ، الآيتان ٤١ ، ٤٢ .
٥ تفسير الشعراوي (١٦/ ١٠٠٤١)

الذي نعرض له ، وهو النظر لهما بوصفهما من سنن الله في نشر البشر على الأرض في العصور المتتالية ، نستشفه ونستنبطه من القصص في القرآن الكريم.

- **الاعتبار**: أي بعاقبتهم ، فقد ورد لحديث عنهم ؛ ليعتبر من بعدهم بما حاق بهم يقول ﷻ : ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾ [1]، و يقول ﷻ : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُون﴾ [2] والاعتبار في الآيتين في البداية والنهاية ، فالاستفهام الذي افتتحت الآيتان به يستحث القلوب والعقول للتفكر في مصائر تلك القرون على تطاول العمر بها ، ثم التأكيد في الختام على أن في مصائرهم من الآيات و البينات والعبر لكل معتبر أو ملتمس للعظة .

الجدير بالذكر، ما يلاحظ من التقارب في معنى الآيات في هذا السياق، سواءٌ وردت فيها القرون أو القرى أو الأمم، فجميعها تشير إلى سنن الله التي حقت في البشر منذ خلقهم الله ﷻ. وما أجمل ما فسر به الإمام ابن كثير – رحمه الله – الآيتين؛ إذ مزج في تفسيره بين كثير من الآيات التي وردت في سياق البحث في تناغمٍ واضح؛ لوحدة الموضوع، يقول: " يَقُولُ تَعَالَى: أَوَلَمَ يَهْدِ لِهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِالرُّسُلِ مَا أَهْلَكَ اللَّهُ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ وَمُخَالَفَتِهِمْ إِيَّاهُمْ فِيمَا جاؤوهم بِهِ مِنْ قَوِيمِ السُّبُلِ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ وَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرٌ؟ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [3]؛ وَلِهَذَا قَالَ: يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ، أَيْ: وَهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِ أُولَئِكَ

---

١ سورة طه ، الآية رقم ١٢٨ .

٢ سورة السجدة ، الآية رقم ٢٦ .

٣ سورة مريم ، الآية رقم ٩٨ .

الْمُكَذِّبِينَ فَلَا يَرَوْنَ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا وَيَعْمُرُهَا، ذَهَبُوا مِنْهَا ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾[١]، كَمَا قَالَ: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٢]، وَقَالَ: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ .أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[٣] ؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ، أَيْ: إِنَّ فِي ذَهَابِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ ودَمَارهم وَمَا حَلَّ بِهِمْ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، وَنَجَاةِ مَنْ آمن بهم ، لآيات وعبرا وَمَوَاعِظ وَدَلَائِل مُتَظَاهِرَة "[٤] و لهذا ختمت كل آية منهما بما يدل على وسيلة الاعتبار ، فهي في الأولى عبرة و آية لأولي النهى ، أي أصحاب " الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ وَالْأَلْبَابِ الْمُسْتَقِيمَةِ "[٥] الذين يسيرون " في مساكنهم إذا سافروا إلى الشام مشاهدين لآثار هلاكِهم ... مما يوجب أن يهتدوا إلى الحق فيعتبروا لئلا يحِل بهم مثلُ ما حل بأولئك "[٦] ، و في الثانية حث على استماع الاعتبار لهذه الآيات التي تعرض لقصص السابقين ،" إن في ذلك المذكور من كثرة إهلاكنا الأمم الخالية لآيات عظيمة ، أفلا يسمعون ويتعظون بها "[٧] .

١ سورة الأعراف ، الآية رقم ٩٢ .

٢ سورة النمل ، الآية رقم ٥٢ .

٣ سورة الحج ، الآيتين ٤٥ ، ٤٦ .

٤ تفسير ابن كثير ج٦ ص٣٧٢ .

٥ تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ٣٢٥)

٦ تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٦/ ٤٩)

٧ فتح البيان في مقاصد القرآن (١١/ ٣٥)

٢ – الأيام .

وردت اللفظة جمعًا[١] في سياق البحث في ثلاثة و عشرين موضعًا ، أجمل بعضها تاريخ من سبقوا قصصهم و مآلهم ، منه قوله ﷻ : ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[٢] ، و "أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ : وقائع الله ﷻ فيهم ، كما يقال : أيام العرب لوقائعها "[٣] ولذا أعقب ذلك قوله ﷻ : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤] ، كأنه " قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا على حكاية الأحوال الماضية ومن آمن معهم، كذلك نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ : مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم "[٥] و المعروف من اللغة أن " العرب تكني بالأيام عن الشرور والحروب، وقد تقصد بها أيامَ السرور والأفراح إذا قام دليل بذلك "[٦]، من الأول ما ورد في الآية السابقة، و كذا قوله ﷻ في عاقبة عاد : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ . . . ﴾[٧] ، فـ" مَعْنَى كَوْنِ هَذِهِ الْأَيَّامِ نَحِسَاتٍ أَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَهُمْ فِيهَا "[٨] ، حتى حتى وصفت بالنحسات ؛ لما وقع عليهم فيها من عذاب استأصلهم . أما ما

---

١ أما مفردها ، فورد في القرآن في أكثر من أربعمائة موضعٍ معرفة و نكرة ، مشيرًا إلى يوم القيامة و ما يصاحبه من أحداث كونية ، و ما يكون فيه من حسابٍ و جزاءٍ .

٢ سورة يونس ، الآية رقم ١٠٢ .

٣ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٣٧٣)

٤ سورة يونس ، الآية رقم ١٠٣ .

٥ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٣٧٣)

٦ زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٣٥٣)

٧ سورة فصلت ، الآية رقم ١٦ .

٨ تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٧/ ٥٥٣)

يكنى بها من معنى النجاة و السرور ، ففي قوله ﷻ : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [١] ، و قوله ﷻ : ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُون﴾ [٢] أورد ابن الجوزي في أيام الله ثلاثة أقوال : " أحدها: أنها نِعَمُ الله ... والثاني: أنها وقائع الله في الأمم قبلهم ... والثالث: أنها أيام نِعَم الله عليهم وأيام نِقَمِه ممن كَفر من قوم نوح وعاد وثمود " [٣] ولا يبعد تفسير الآية الثانية عن ذلك ، فرغم ما ذكره البعض من أن المعنى " لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أي : لا يَخافون وقائع الله في الأُمم الخالية؛ لأنهم لا يؤمنون به، فلا يخافون عقابه " [٤] ، أورد بعضهم أن المعنى " لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها " [٥]

ثانيًا: الدلائل المعنوية على التاريخ في القرآن الكريم.

هي مناط الاعتبار مما جاء في القرآن من دلائل لفظية على تاريخ السابقين وأحوالهم في الخير والشر، وتتمثل فيما يستنبط منه من **السنن الإلهية التاريخية والاجتماعية**. و لفظة السنن وردت نصًّا ست عشرة مرة في القرآن الكريم، أفردت في أربعة عشر موضعًا، و جمعت في موضعين، و جاءت منسوبًة لله ﷻ في بعضها ومنسوبة للرسل عليهم السلام في بعضٍها ،و في بعضٍ نسبت للأمم التي خلت .

١ سورة إبراهيم ، الآية رقم ٥ .

٢ سورة الجاثية ، الآية رقم ١٤ .

٣ زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٥٠٤ ، ٥٠٥)

٤ زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٩٨)

٥ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٢٨٨)

من الأولى قوله ﷻ : ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[1] ، و من الثانية قوله ﷻ : ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلا . سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا﴾[2] و من الثالثة قوله ﷻ : ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِين﴾ [3] .

ومع النص عليها، ألمح إليها في القرآن بشكل عملي خلال عرض سلوكيات البشر وموقف الأمم من الرسل وموقف الرسل منهم ونتيجة ذلك نجاةً أو عقابًا من عند الله ﷻ.

والنسبة المتعددة للفظة تدفع للبحث عن دلالتها بين اللغة والاصطلاح والتفسير؛ لتبين دلالة نسبتها المتعددة وبالعودة لما سبق، نلاحظ أن السنة لها معنىً عام ، وقد تصطبغ أحيانًا ببعض الاختصاصات التي تفيد تخصيص عمومها وتقييد مطلقها.

في اللغة عن معناها العام " السُّنَّةُ السِّيرةُ حَسَنَةً كانتْ أو قبيحةً والسُّنةُ الطَّبيعَةُ " [4] ، و فيها السنة " الطَّرِيقَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ وَالْمِثَالُ الْمُتَّبَعُ، وَفِي اشْتِقَاقِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ ... أَنَّهَا فُعْلَةٌ مِنْ سَنَّ الْمَاءَ يَسُنُّهُ إذَا وَالَى صَبَّهُ، وَالسَّنُّ الصَّبُّ لِلْمَاءِ، وَالْعَرَبُ شَبَّهَتِ الطَّرِيقَةَ الْمُسْتَقِيمَةَ بِالْمَاءِ الْمَصْبُوبِ فَإِنَّهُ لِتَوَالِي أَجْزَاءِ الْمَاءِ فِيهِ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ يَكُونُ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ " [5] ، و جاء عنها : " هِيَ الْعَادَةُ الَّتِي

---

١ سورة الأحزاب ٣٨ .

٢ سورة الإسراء ٧٦ ، ٧٧ .

٣ سورة الأنفال ٣٨ .

٤ المحكم والمحيط الأعظم (٨/ ٤١٧)

٥ تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٩/ ٣٦٩) ، بتصرفٍ بسيط .

تَتَضَمَّنُ أَنْ يَفْعَلَ فِي الثَّانِي مِثْلَ مَا فَعَلَ بِنَظِيرِهِ الْأَوَّلِ؛ وَلِهَذَا أَمَرَ ﷻ بِالِاعْتِبَارِ ... وَالِاعْتِبَارُ أَنْ يُقْرَنَ الشَّيْءُ بِمِثْلِهِ فَيُعْلَمَ أَنَّ حُكْمَهُ مِثْلُ حُكْمِهِ " [١]

على هذا، وجدنا السنة تنسب للأمم، و تنسب للأنبياء عليهم السلام، و تنسب للحق ﷻ، **فسنة الأمم الخالية** هي سيرتها وتكون حسنة أو سيئة حسب الموقف الذي اتخذته تجاه الرسل عليهم السلام، و قد عرضنا نماذج منها عند استعراض الدلائل اللفظية، من السيئة تكذيب الرسل و رفض الإيمان و الاستخفاف بمعجزات الرسل عليهم السلام و الكيد لهم، حتى قال الحق ﷻ: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُون﴾ [٢] كأنما توارثوا الكفر والعصيان جيلا بعد جيل.

ومن الحسنة منهج الصالحين من السابقين ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيم﴾ [٣] الآية جاءت عقب آية المحرمات من النساء، فذكر المفسرون أن المعنى " يريد الله ليبين لكم حلاله وحرامَه وليسددكم سُبل من قبلكم من أهل الإيمان بالله وأنبيائه ومناهجهم " [٤] ، و في قول آخر : " يرشدكم شَرَائِعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ فِي تَحْرِيمِ الْأُمَّهَاتِ وَالْبَنَاتِ وَالْأَخَوَاتِ، فَإِنَّهَا كَانَتْ مُحَرَّمَةً عَلَى مَنْ قَبِلَكُمْ ، وَقِيلَ: وَيَهْدِيَكُمُ الْمِلَّةَ الْحَنِيفِيَّةَ وهِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام "[٥] وسنته .

١ مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠)
٢ سورة الذاريات ٥٢ ، ٥٣ .
٣ سورة النساء ، الآية رقم ٢٦ .
٤ تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٨/ ٢٠٩)
٥ تفسير البغوي – إحياء التراث (١/ ٦٠١)

أما سنة الأنبياء، فهي حسنة كلها ، بيناها من قبل، فقد أرسلوا للبشر مبشرين ومنذرين، ومنها سيرتهم الطيبة في أقوامهم، فقد كانوا دعاة إلى الحق قائمين به عليهم السلام، ومنها أنهم كانوا يدلون أقوامهم إلى سنن الله في إصلاح البشر وعمارة الأرض ... الخ. و من هنا صارت السنة علمًا على سنة رسول الله ﷺ وتشير سُنَّةُ النّبيّ إلى " طريقته التي كان يتحرّاها" [1] كما أطلقها الأصوليون على " مَا صَدَرَ مِنْ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالتَّقْرِيرِ " [2] وتدل شرعًا على " مَا أمَر بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَنَهَى عَنْهُ ونَدَب إلَيْهِ قَوْلًا وفِعْلا، مِمَّا لَمْ يَنْطق بِهِ الكِتابُ العزيزُ " [3] وتقوم السنة النبوية بذلك على معنى الدوام ، أي دوام الالتزام بها ، فعرفت بالسنة ؛ لأن السنة تدل على الدوام .

أما سنة الله ، فهي : " حُكمُه وأمرُه ونهيُه " [4] فحكم الله ﷻ في البشر مؤمنهم و كافرهم سنة وأمره سنة ونهيه سنة ؛ لأنها منهج واضح و شرعة ثابتة في الأولين و الأخرين ، و القرآن الكريم يتضمن سنن الله ﷻ في خلقه ، منها أنه ﷻ بعث النبيين مبشرين و منذرين للناس ، و على حسب موقف الناس من رسلهم كان جزاؤهم ،فالمؤمن ينصره الله ، و الكافر يأخذه الله ، و لذا قيل : " سُنَّةُ الله ﷻ : قد تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته " [5] ؛ وعليه قيل في قوله ﷻ : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[6] و قوله ﷻ :

---

١ المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٢٩)

٢ البحر المحيط في أصول الفقه (٦/ ٦)

٣ النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٤٠٩)

٤ تهذيب اللغة (١٢ /٢١٣)

٥ المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٢٩)

٦ سورة الفتح ٢٣ .

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[١] أنه " تنبيه أنّ فروع الشّرائع– وإن اختلفت صورها– فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدّل ، وهو تطهير النّفس وترشيحها للوصول إلى ثواب الله " .[٢] هذا إلى جانب أن سنن خلقه ﷻلا تخرج عن علمه وإرادتهﷻ.

وقد اهتم علماؤنا بالسنن الإلهية ، فأقام عليها ابن خلدون مقدمة تاريخه ، وتعني بعلم العمران البشري ، وأشار إليها ابن تيمية ، و تنبه آخرون في العصر الحديث إلى كونها من العلوم المستنبطة من القرآن الكريم ، يقول الأستاذ الإمام : " إِنَّ إِرْشَادَ اللهِ إِيَّانَا إِلَى أَنَّ لَهُ فِي خَلْقِهِ سُنَنًا يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ هَذِهِ السُّنَنَ عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ الْمُدَوَّنَةِ لِنَسْتَدِيمَ مَا فِيهَا مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْمَوْعِظَةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ، فَيَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ فِي مَجْمُوعِهَا أَنْ يَكُونَ فِيهَا قَوْمٌ يُبَيِّنُونَ لَهَا سُنَنَ اللهِ فِي خَلْقِهِ كَمَا فَعَلُوا فِي غَيْرِ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الَّتِي أَرْشَدَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ بِالْإِجْمَالِ ... وَلَكَ أَنْ تُسَمِّيَهُ عِلْمَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ عِلْمَ الِاجْتِمَاعِ أَوْ عِلْمَ السِّيَاسَةِ الدِّينِيَّةِ " [٣] ،و قد أُطْلِقَ عليها السنن الإلهية و السنن الربانية ، و**عرفها بعضهم اصطلاحًا** بأنها " مجموعة القوانين التي يسير وفقها الوجود كله و تتحرك بمقتضاها الحياة و تحكم جزئياتها و مفرداتها فلا يشذ عنها مخلوق ... ما في الكون ذرة أو حركة، والكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات إلا وله قانون، وما من كوكبٍ أو نجم إلا وله قانون لا إرادي أو لا ذاتي يسير وفقه، وما من حركةٍ نفسية أو اجتماعية أو نقلةٍ حضارية إلا ولها قانون يتجلى في الأسباب والعوامل

١ سورة فاطر ٤٣ .

٢ المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٢٩)

٣ تفسير المنار (١١٤/٤ ، ١١٥)

المؤدية إليها. وسلبت الإرادة من كل الكائنات المخلوقة إلا الإنسان " [١] والتعريف السابق يضع أيدينا على نقاطٍ هامة، منها:

- أن السنن الربانية: طريقة متبعة ومطردة، ووصفها بالربانية يعني " أنها منسوبة إلى الله ﷻ فهي في إطار الحكمة الربانية و تحافظ على وتيرةٍ واحدة في عملها بما أودعه خالقها فيها من خصائص، فهي محفوظة فيها بأمر ربها الذي خلقها " [٢]
- أن السنن الربانية على نوعين:

- السنن الكونية: و تشير إلى النظام الذي أقام الله ﷻ عليه الكون ، " و تتعلق بالأشياء و الظواهر والأحداث المادية و الطبيعية " [٣]
- السنن البشرية: وتشير إلى النظام الذي أقام الله ﷻعليه حياة البشر، وهي بدورها ما بين سنن تاريخية وسنن اجتماعية " وتتعلق بسلوك البشر وأفعالهم ومعتقداتهم وسيرتهم في الدنيا وفق أحوال الاجتماع والعمران البشري، وما يترتب على ذلك من نتائج في العاجل والآجل " [٤]

و نحن نقرأ في كتاب الله ﷻ ما يشير إلى هذين النوعين في سياق الموضوعات التي وردت السنة بها .

- أن السنن تذكر في القرآن تلميحًا – كما في النوع الأول –أو تصريحًا – كما في النوع الثاني–لما عليه اتفاق البشر أن الكون يسير وفق نظام بديع

---

١ سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها ، د. محمد هيشور ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ص٢٧ .

٢ الإسلام و العولمة " المنازلة " العالمية الإسلامية و العولمة البشرية بين السنن الربانية والتدافع الإنساني ، د. سامي محمد الدلال ص١١ .

٣ السنن الكونية و الاجتماعية ، ص٧ .

٤ المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

ومتقن، ويزداد وضوحه شيئًا فشيئًا كلما أمدهم العلم بسرٍّ جديد من أسرار الكون، لاسيما ولا دخل لهم في وضع هذا النظام الذي يسير الكون فيه وفق سنن لا تتغير ولا تتبدل. أما السنن البشرية فمجال أخذٍ ورد؛ فهي سنن العمران البشري في الاجتماع والافتراق والاتفاق والاختلاف، وشارك البشر أنفسهم في بعضها إيجابًا أو سلبًا، ويرى بعضهم أن التاريخ يسير بفوضوية أوحتمية ، فجاء القرآن الكريم يؤكد " أن الساحة التاريخية لها سنن ولها قوانين وضوابط، كما أن هناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونية ... فحركة التاريخ محكومة بقوانين ثابتة لم تتخلف، متى ما تقدمت الأسباب تبعتها النتائج المحددة، وليست حركة التاريخ حركة عشوائية " [١]

- أن السنن منها إجباري ومنها اختياري، فالإجبارية " تجري على الكائنات الحية بما فيها الإنسان، كالولادة والموت والحياة والأوصاف الخلقية والحالات الفطرية للإنسان، وكل ما في عالم الغيب بما اختصت به القدرة والمشيئة الإلهية من الأمور التي لا طاقة للإنسان بها ... والاختيارية هي الداخلة في دائرة القدرة الإنسانية، وما يمكن أن يناله الإنسان أو يسخره في الحياة باستخدام القدرة العقلية وغيرها مما أوتي من الحواس كالسمع والبصر التي زود بها هذا الإنسان لغرض تحقيق غاية خلقه وسبب وجوده في استعمار الأرض والاستخلاف فيها. وعلى قدر اتساع هذه الدائرة وتفاوتها بين بني الإنسان، يكون البشر مسئولاً عن نتائج أعماله وتصرفاته " [٢]

وبهذا يتبين قيام الكون كله على النظام السنني متضمنًا التاريخ بأحداثه التي " بنيت على قواعد ونظم فلم تترك أحداثه للمصادفة والأهواء وتعرف هذه

١ السنن التاريخية في القرآن الكريم ، حسن سليمان حسن قيلي ، ص٢٣

٢ سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها ، د. محمد هيشور ، ص٢٧ .

النظم والقواعد بالسنن الربانية التي لا تتغير ولا تتبدل. وكل ما يبدو أنه صدفة في التاريخ يمكن أن يفسر بأنه جهلٌ بالأسباب، فكل التغيرات الجارية في الكون والتاريخ تحدث وفق سنن ثابتة وعادلة " [1] يقول ﷻ : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [2] ، و يقول ﷻ : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [3] و عليه فالعروض التاريخية التي عرض لها القرآن " تخرج عن الإطار الفني للقصة وتكتسب بعدها التاريخي المجرد ... فقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية ، و حدثنا عن الماضي في جل مساحاته لكي يخرج بنا إلى تبيان الحكمة من وراء هذه العروض، و إلى بلورة عدد من المبادئ الأساسية في حركة التاريخ البشري التي سماها " سننًا " و دعانا إلى تأملها و اعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة و نزوعنا المستقبلي" .[4] وقد أقام العلماء بناءً كبيرًا في دراسة السنن التاريخية والاجتماعية، واهتموا بها لأنها من علوم القرآن الكريم واعتبروا أنه " واجبٌ شرعًا ودينًا لابد أن ينبري له من العلماء من يقوم بهذه الفريضة الشرعية والكفائية الغائبة" [5] فالسنن البشرية بنوعيها خاصة بالإنسان أيًّا كان زمانه و مكانه ، والعلماء ورثة الأنبياء ، و يقومون بمهامهم بين الناس و يبلغون دعوتهم ، و موقف الإنسان منهم مختلف ما بين مهتد و ضال و هكذا " يبقى الإنسان يتأرجح بين الاستقامة والانحراف وبين الصلاح والفساد و بين التحضر و الانحطاط ... و قد يستقيم على الحق المبين و يلتزم نهج الله رب العالمين ، فيتحضر و تزدهر حضارته و تسعد حياته

١ السنن التاريخية في القرآن الكريم ، ص٤٨ .

٢ سورة الفرقان ٢

٣ سورة القمر ٤٩ .

٤ التفسير الإسلامي للتاريخ ، د. عماد الدين خليل ص٩٧ .

٥ السنن الكونية و الاجتماعية في القرآن الكريم ، د. توفيق بن أحمد الغلبزوري، ص٩ ، كلية أصول الدين – جامعة القرويين – المملكة المغربية .

. وقد ينحرف الإنسان عن الطريق المستقيم وتضعف قوته وتخور عزائمه ويتمادى في الفساد والفسوق فيهوي إلى ساحة السقوط والبوار وقد جعل الله لكلا الطريقين أو الخطين سننًا يسلكها البشر ويأخذون بها على درايةٍ وإرادةٍ وعلم ".[١]

المبحث الثاني : النظرة إلى التاريخ في السنة النبوية

جاءت السنة مؤكدةً على ما في القرآن الكريم من الأوامر والنواهي، ومفصلةً لمجمله ومقيدةً لمطلقه ومخصصةً لعامه – أحيانًا – كما جاءت ببعض الأحكام الزائدة التي لم ترد في القرآن الكريم.

ونلاحظ أن السنة لم تبتعد عن هذا في نطاق البحث، فإذا كان القرآن يعرض قصص الماضي، فإن الرسولﷺ جعل لقصص الأنبياء نصيبًا من حديثه، فسر فيه ﷺالآيات التي تتعلق بتلك القصص. كما أورد فيه مزيدًا من القصص التي لم ترد في القرآن الكريم ، مثل قصة الغلام و الساحر ، ووردت بيانًا لقصة الأخدود[٢] ، فعن صُهَيْبٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ ... فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ ، فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى،

١ سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها ، د. محمد هيشور ، ص١٦٦ .

٢ الواردة في سورة البروج

فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ ... فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي... فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ "[1]

والأحاديث في هذا السياق كثيرة حتى خصص لها الإمام البخاري كتابًا في الجامع الصحيح[2]، ومما فيه حديث الثلاثة من بني إسرائيل الأبرص والأقرع والأعمى[3] وحديث الثلاثة الذين أووا إلى المبيت في الغار، فكان من شأنهم ما قص الرسول ﷺعلينا مما استنبط منه العلماء فوائد جمة في الفقه والدعاء والتوبة وغيرها[4].

---

١ صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٩ ، ٢٣٠٠) حديث رقم ٣٠٠٥ .

٢ كتاب أحاديث الأنبياء و يتضمن خمسين بابًا .

٣ الحديث بتمامه في صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل ج٤ ص١٧١ حديث رقم ٣٤٦٤ من حديث أبي هريرة ﷺ ، و صحيح مسلم ج٤ ص٢٢٧٥ حديث رقم ٢٩٦٤ في كتاب الزهد و الرقائق و صحيح ابن حبان ج٢ ص١٣ في ذِكْرُ الْإِخْبَارِ عَمَّا يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ الشُّكْرِ لِلَّهِ، جَلَّ وَعَلَا، بِأَعْضَائِهِ عَلَى نِعَمِهِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتِ النِّعْمَةُ تَعْقِبُ بَلْوَى تَعْتَرِيهِ ، حديث رقم ٣١٤ ، و غيرهم .

٤ انظر القصة بتمامها في الجامع الصحيح للإمام البخاري من رواية عبد الله بن عمر ﷺ ج٣ ص٩١ حديث رقم ٢٢٧٢ .

وأذكر – هنا – بما أشير إليه في المبحث الأول من الدلائل اللفظية على التاريخ، فالسنة تتضمن كثيرًا من هذه الدلائل اللفظية بما سبق، وبما ورد فيها من الأحداث المستقبلية الفارقة مما يكون بعد وفاة الرسولﷺ إلى قيام الساعة، **وهو ما نريد التركيز عليه في البحث**[١]؛ فإذا كان القرآن الكريم أفاض في الحديث عن الماضي من جانب، وفي الحديث عن أهوال يوم القيامة من جانبٍ آخر[٢]، فإن السنة أفاضت في الحديث عن أشراطها وعلامات قرب قيامها. وليس الحديث عن المستقبل بعيدًا عن موضوع البحث، بل شديد الاتصال به من عدة جوانب:

الأول: إعطاء تلك النظرة التكاملية للحياة البشرية وأحداثها؛ لاسيما والغاية الكبرى من علم التاريخ ليست تعرف الماضي فحسب، بل تقوم على الاعتبار بما يعنيه من " التعلم من الماضي؛ لتدبير الحاضر وتفسير أحداثه، ثم إنارة المستقبل والاستعداد له "[٣] ولعل هذا لب مفهوم الاعتبار والنظر الذي نتأوله من آياتٍ هذا السياق وغيرها كقولهﷻ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[٤]

الثاني: أننا نستقي مادة البحث من القرآن و السنة، و القرآن كلام اللهﷻخالق الزمان والمكان، فالماضي والحاضر و المستقبل عنده ﷻ سيان، أما السنة فهي من الوحي الذي أُوْحِيَ إليه ﷺ ؛ إذ أطلع الله ﷻ نبيه ﷺ على الكثير

١ حتى تتضح تلك التكاملية بين ما جاء في القرآن و السنة

٢ هذا بالإضافة إلى الإشارات القرآنية العديدة إلى بعض أشراط الساعة ، مثل يأجوج و مأجوج التي ورد ذكرها في سورة الأنبياء و سورة الكهف ، و الدابة التي ورد ذكرها في سورة النمل .

٣ مقال " تعليم تاريخ المستقبل و تكوين الوعي المستقبلي " أ. د عيد عبد الغني الديب عثمان ، ٢٠٢٠/١/١٠ ، موقع الإمارات الالكتروني .

٤ سورة الحشر ١٨ .

من الغيبيات التي أَخْبرَ بحدوثها قبل أن تكون من باب الإعجاز تارة و أخذ الحيطة والحذر تارة أخرى .

الثالث: ركزت السنة على الأحداث المستقبلية بالإشارات والنبوءات، وجعلتها للأمة – إلى حدٍّ ما –كالتاريخ الذي حدث بتلك النافذة التي أحدثت بها لديها نظرة على المستقبل الذي لما يأتِ بعد. ومن فوائد ذلك ما أوجده من الشغف والاهتمام القديم الجديد من قبل العلماء بأحاديث هذا الجانب من السنة؛ لما فيه من استشراف المستقبل وتعرفه، واستنباط وسائل التعامل معه.

و قد وردت أحاديث هذا الجانب في دواوين السنة و مصنفاتها تحت عناوين منها " **الفتن و الأشراط و الملاحم** " في كتاب الفتن من صحيح البخاري و سنن الترمذي و سنن ابن ماجه وكتاب الفتن و أشراط الساعة من صحيح مسلم وكتاب الفتن و الملاحم في سنن أبي داود ، كما أوردها بعضهم تحت عنوان **دلائل النبوة والإخبار بالغيوب** و جاءت في مصنفات دلائل النبوة وأعلامها ؛ واعتبرها بعضهم من معجزاته ﷺ التي " تَزِيدُ عَلَى أَلْفِ مُعْجِزَةٍ " [1] و عدوها من " إِخْبَارِهِﷺ بِالْغُيُوبِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ ﷻ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعَلِّمَهُ إِيَّاهَا بَشَرٌ. فَأَخْبَرَهُمْ بِالْمَاضِي وَبِالْمُسْتَقْبَلَاتِ"[2]. كما حفظها بعضهم تحت عنوان **التاريخ**، كابن حبان الذي وضع كتاب التاريخ في تاريخه و ضمنه أبوابًا،منها باب إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن و الحوادث وهي لفتة علمية طيبة من ابن حيان – رحمه الله – تترجم ما أشرنا إليه من أن تلك الفتن ، و إن لم تكن في حياته ﷺ فإنها من تاريخ أمته ﷺ باعتبار ما يكون .

١ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (١/ ٣٩٩)

٢ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (١/ ٤٠٠)

والملاحظ أن العلماء أطلقوا عليها هذه الأسماء؛ اقتباسًا من القرآن الكريم والسنة الشريفة، أما الفتن فوردت في قولهﷻ: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١] وفي السنة روي عنهﷺ؛ إذ " أَشْرَفَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ " [٢] ، و أما الأشراط ، فوردت في قوله ﷻ : ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُم﴾[٣] ، كما وردت فيما روى أنس ﷺ عنه ﷺ أنه قال : ﴿مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَقِلَّ العِلْمُ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ ﴾ [٤] ، أما الملحمة فوردت في السنة ، فعن أَبِي مُوسَى الأشعريﷺ قَالَ: ﴿ سَمَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ نَفْسَهُ أَسْمَاءً، مِنْهَا مَا حَفِظْنَا وَمِنْهَا مَا لَمْ نَحْفَظْ ، فَقَالَ: " أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ وَالْمُقَفِّي وَالْحَاشِرُ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ ﴾ [٥] وترتبط هذه الكلمات بالموضوع من حيث:

- أنها تشير إلى أحداث مستقبلية تطرأ على حياة المسلمين بشكلٍ خاص أو حياة البشر بشكلٍ عام.
- أنها ترتبط بالساعة، فكثيرًا ما وردت في القرآن والسنة بوصفها من علامات الساعة، حتى صنفها علماء السنة – بحسب ضوابط معينة – إلى علامات

١ سورة الأنفال ٢٥ .

٢ صحيح مسلم (٤/ ٢٢١١)

٣ سورة محمد ١٨ .

٤ صحيح البخاري (١/ ٢٧) حديث ٨١ .

٥ مسند أحمد ط الرسالة (٣٢/ ٣٩٧) حديث ١٩٦٢١ ، حديث صحيح .

صغرى وعلامات كبرى تدل على قرب الساعة. ولنلق نظرة على المصطلحات الثلاثة في المعجم والدلالة؛ ليتضح الأمر.

أولاً: الفتن.

الفتنة لغة " الإحراق بالنار "[١] و الصائغ " الفتان؛ لإذابته الذهب و الفضة في النار "[٢] و قيل: " فتن المعدن: صهره في النار ليختبره "[٣] ثم انتقلت من الدلالة الحسية إلى الدلالة المعنوية، فقال ابن الأثير: " الفتنة : الامتحان والاختبار ، يقول الحق ﷻ : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[٤] ، ومنه الحديث : ﴿ المؤمن خلق مفتنًا ﴾ أي ممتحنًا ، يمتحنه الله ﷻ بالذنب ثم يتوب ، ثم يعود ثم يتوب "[٥] ، فالفتنة في الآية الكريمة بالشر و الخير الخير ، و في الحديث الشريف بالذنب ، و ذا يشير إلى أن اختبار الفتنة يتنوع إلى أمور كثيرة تؤول في نهايتها بالابتلاء ؛ و لذا قال الراغب : " جعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يُدفع إليه الإنسان من شدّة ورخاء، وهما في الشّدّة أظهر معنى وأكثر استعمالا "[٦]. ويتضح هذا من الأمثلة التي ساقها العلماء للفتنة، فالفتنة " المحنة والفتنة المال والفتنة الأولاد والفتنة الكفر والفتنة اختلاف الناس بالآراء ... والفتنة ما يقع بين الناس من القتال "[٧] وفي تاج العروس: " فتنة المحيا: أن يعدل عن الطريق، فتنة الممات: أن يسأل في القبر،

١ لسان العرب لابن منظور ج١٣ ص٣١٧ .
٢ تاج العروس للزبيدي ج٣٥ ص٤٩٣ .
٣ المعجم الوسيط ج٢ ص٦٧٣ .
٤ سورة الأنبياء ٣٥ .
٥ النهاية في غريب الحديث و الأثر ج٣ ص٤١٠ .
٦ المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٢٣)
٧ لسان العرب لابن منظور ج١٣ ص٣١٧ ، ٣١٩ بتصرفٍ بسيط .

فتنة الضراء: السيف، فتنة السراء: النساء "[١] فكثير من الأمثلة السابقة، تشير إلى أحداث وأحوال – في الخير والشر–تطرأ على الإنسان، والحسم فيها يعني اختبارًا له.

وتظهر الفتن بذلك على أنها من السنن الإلهية الاجتماعية في البشر، فتكون من الدلائل المعنوية على التاريخ؛ فترفد بذلك الرؤية المتكاملة إلى التاريخ بين القرآن والسنة برافدٍ جديد، فالقرآن الكريم أظهر الفتن والابتلاء بوصفها من سنن اللهﷻ في البشر وحكمته في الخلق، والسنة أفاضت في بيان أنواع الفتن على مدار الأيام وأسبابها ونتائجها وسبل النجاة منها.

ثانيًا: الأشراط.

الشَّرَطُ بفتح الراء: " الْعَلَامَةُ "[٢]، " وَرَجُلٌ شُرْطِيٌّ وشُرَطِيٌّ، سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لأَنهم أَعَدُّوا لِذَلِكَ وأَعْلَمُوا أَنفسَهم بِعَلَامَاتٍ ". [٣]

وَالْجَمْعُ أَشْراطٌ ، " وأَشْراطُ الساعةِ: أَعْلامُها " [٤] ، قال ﷻ : ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا﴾ [٥] ، فأشراطها : " أَيْ أَمَارَاتِهَا وَعَلَامَاتِهَا " [٦] ، و ذكر أهل اللغة أن هذه اللفظة من الأضداد ، فـ" الأَشْراطُ : الأَرْذالُ والأَشْراطُ : الأَشْرافُ " [٧] ، وهي فيما يتعلق بأشراط الساعة ، تشير إلى الأول و لهذا قال الْخَطَّابِيُّ : " أَشْرَاطُ السَّاعَةِ: مَا يُنكِرُه الناسُ مِنْ صِغار أُمورها قَبْلَ أَنْ

١ تاج العروس للزبيدي ج٣٥ ص٤٩٣ .
٢ لسان العرب (٧/ ٣٢٩)
٣ لسان العرب (٧/ ٣٣٠)
٤ لسان العرب (٧/ ٣٢٩)
٥ سورة محمد ١٨ .
٦ تفسير القرطبي (١٦/ ٢٤٠)
٧ لسان العرب (٧/ ٣٣١)

تقُوم السَّاعَةُ " [١] ، كما جاء أن " أَشْراطُ الشَّيْءِ: أَوائلُه " [٢] و العلامات و الأوائل متقاربـان ؛ لأن " عَلَامَـةَ الشَّـيْءِ أَوَّلـه " [٣] ، وعليـه عرفـت الأشـراط بأنهـا " الإرهاصات و المقدمات الدالة على قرب الساعة ... و كلمة الأشراط جاءت للتعبير عن صغار الأمور التي تحصل قبل العظائم و تدل على قرب الساعة " [٤]

ولهذا ورد على أسماعنا كثيرًا ما أطلق عليه العلماء العلامات الصغرى والعلامات الكبرى للساعة، فالصغرى هي الأشراط التي ترد في البحث، " والحكمة في تقديم الأشراط ودلالة الناس عليها تنبيه الناس من رقدتهم وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة كي لا يباغتوا بالحول بينهم وبين تدارك العوارض منهم، فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة قد نظروا لأنفسهم، واستعدوا للساعة الموعود بها ".[٥]

أما العلامات الكبرى، فرأى بعض العلماء، أنها وردت في حديث رسول اللهﷺ بلفظ الآيات، وهذه وتلك أحداث تسبق القيامة وتدل عليها، وإن كانت الثانية أكثر دلالةً عليها وأقرب زمنيًّا منها من الأولى.

ثالثًا: الملحمة.

جاء في مقاييس اللغة أن " الـلَّام وَالْحَاء وَالْمِيم أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَدَاخُلٍ، كَاللَّحْمِ الَّذِي هُوَ مُتَدَاخِلٌ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ. وَسُمِّيَتِ الْحَرْبُ مَلْحَمَةً

١ لسان العرب لابن منظور ، مرجع سابق .

٢ لسان العرب (٧/ ٣٣٠)

٣ المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

٤ الموسوعة في الفتن و الملاحم و أشراط الساعة ، د. محمد أحمد المبيض ، ص٥١ ، ٥٢ .

٥ التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ، (ص: ١٢١٧)

لِمَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا تَلَاحُمُ النَّاسِ: تَدَاخُلُهُمْ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ، وَالْآخَرُ أَنَّ الْقَتْلَى كَاللَّحْمِ الْمُلْقَى "[١] والجوهري يذكر أن " المَلْحَمَة: الوقعةُ العظيمة في الفتنة "[٢]

وقد وردت اللفظة في السنة دون القرآن الكريم ، من ذلك ما جاء في حديث زيد بن أرقم عن غزوة مؤتة : " ثُمَّ الْتَقَى النَّاسُ فَاقْتَتَلُوا، فَقَاتَلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِرَايَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى شَاطَ فِي رماحِ الْقَوْمِ، ثُمَّ أَخَذَهَا جَعْفَرٌ فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى إِذَا أَلْحَمَهُ الْقِتَالُ اقْتَحَمَ عَنْ فَرَسٍ لَهُ شَقْرَاءَ فَعَقَرَهَا، فَقَاتَلَ الْقَوْمَ حَتَّى قُتِلَ "[٣]، ومنه قوله ﷺ : «ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ ، أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا »[٤]

و كذا حديث أَبِي مُوسَىرضي الله عنه، قَالَ: «سَمَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺنَفْسَهُ أَسْمَاءً مِنْهَا مَا حَفِظْنَا فَقَالَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وأَحْمَدُ، والْمُقَفِّي والْحَاشِرُ ونَبِيُّ الرَّحْمَةِ، قَالَ يَزِيدُ: ونَبِيُّ التَّوْبَةِ ونَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ»[٥] و قد تعني أنهﷺ " نبي القتال "[٦] كما في قولهﷺ: « بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»[٧]، كما تشير إلى أنه ﷺ النبي الذي الذي تليه الساعة ، فلا يفصل بينه ﷺ و بينها نبي آخر ، بل يفصل بينهما أشراط الساعة و ملاحمها .

١ مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٢٣٨)

٢ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ٢٠٢٧)

٣ المعجم الكبير للطبراني (١٣/ ١٨١)

٤ سنن أبي داود (٣/ ٢١) حديث ٢٤٥٠ .

٥ مسند أحمد مخرجا (٣٢/ ٢٩١)حديث ١٩٥٢٥ .

٦ النهاية في غريب الحديث و الأثر لابن الأثير الجزري ج٤ ص٢٣٩ .

٧ مسند أحمد ط الرسالة (٩/ ١٢٣)

وبعد استعراض الألفاظ الثلاثة نلاحظ:

أ- أن الثلاثة يشيرون إلى أحداث خطيرة وهامة، بلغ من خطورتها وأهميتها أن أشار القرآن الكريم أو السنة النبوية أو هما معًا إليها؛ تنبيهًا للناس؛ للاستعداد لمواجهتها أو أخذ الحذر منها.

ب-أنه يمكن – بشكل تقريبي – أن نرتبهم ترتيبًا من الأعم إلى الأخص، فتكون الفتن أعمهم، تليها الأشراط ثم الملاحم.

فالفتن تشمل كل خير أو شرٍ ابتلي به الإنسان، ومن ذلك الأشراط والملاحم، فكل الأشراط من الفتن، وليست الفتن الأشراط فحسب، بل تشملها وغيرها. وأما الأشراط فهي علامات الساعة الصغرى والكبرى، ومن ذلك ملاحم آخر الزمان، فهذه الملاحم من الأشراط، وليست الأشراط الملاحم فحسب، بل تشملها وغيرها.

وإذا أنعمنا النظر في السنة وجدنا إشارات عدة إلى المصطلحات الثلاثة، كما وجدنا أن حديثه ﷺعنها لا يقتصر على أحداث زمنٍ معينٍ بعده ﷺ، بل تخبر بالكثير من الأحداث الغيبية التي تحدث في القرون المتتابعة بعده ﷺ حتى قيام الساعة . و يلاحظ أن بعض هذه الأخبار ذو سمةٍ خاصة يتعلق بأناسٍ بأعينهم و بعضها يتعلق بجماعاتٍ من الناس أو عامتهم، فمن الخاص ما جاء

من إخباره ﷺعن خلافة أبي بكر و عمر ﷺ[١] وإخباره ﷺ ابنته السيدة فاطمة الزهراء ﷺ بأنها أول أهله موتًا بعده و لحوقًا به [٢]و كذا إخباره ﷺ عن موت أبي ذر الغفاري ﷺ وحيدًا [٣] ، فكان كما أخبر ﷺ . و الأخبار في هذا السياق كثيرةً لن نفيض فيها؛ للتركيز على ما جاء من إخباره ﷺ بالفتن و تغير الزمان وأشراط الساعة وما يسيقها من الملاحم ، وهي أخبار تشير إلى أحداث في حياة المسلمين و غيرهم من البشر على اختلاف عصورهم . وسوف نعرض لبعض ما جاء في السنة من أخبار عن المصطلحات الثلاثة السابقة على الترتيب.

أولاً : أحاديث الفتن .

الفتن الحادثة بعده ﷺ من أهم ما ورد في حديثه ﷺ الذي أخبر فيه بما يكون بعده ﷺ ، يدل على ذلك ما روي عنه ﷺ ؛ إذ " أَشْرَفَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ "[٤]، والحديث يدل على كثرة الفتن و تتابعها من ناحية، و على أن ذلك مما علم الله ﷻ رسوله ﷺ من ناحيةٍ أخرى . و الأخبار في هذا المجال أوسع مما قبله[٥]، روي عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : "قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَامًا، مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، إِلَّا حَدَّثَ بِهِ ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ

١ سنن الترمذي ت بشار ، أخرجه في أبواب الفتن ، باب ما جاء في الخلافة ، حديث ٢٢٢٦ من رواية سفينة ﷺ (٤/ ٧٣) عن الرسول ﷺ .

٢ صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ﷺ ، باب فضائل فاطمة ﷺ بنت النبي ﷺ (٤/ ١٩٠٤)

٣ صحيح ابن حبان – محققا ، كتاب التاريخ ، ذكر إخبار المصطفى ﷺ عن موت أبي ذر(١٥/ ٦٠ ، ٦١)

٤ صحيح مسلم (٤/ ٢٢١١)

٥ أقصد الأخبار الخاصة .

وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ، كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَآهُ عَرَفَهُ " [1]

وورد عنه أيضًا قوله ﷺ : " وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّاسِ بِكُلِّ فِتْنَةٍ هِيَ كَائِنَةٌ، فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ السَّاعَةِ، وَمَا بِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَسَرَّ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ شَيْئًا، لَمْ يُحَدِّثْهُ غَيْرِي، وَلَكِنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: وَهُوَ يُحَدِّثُ مَجْلِسًا أَنَا فِيهِ عَنِ الْفِتَنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَعُدُّ الْفِتَنَ: مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ لَا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شَيْئًا، وَمِنْهُنَّ فِتَنٌ كَرِيَاحِ الصَّيْفِ مِنْهَا صِغَارٌ وَمِنْهَا كِبَار ، قَالَ حُذَيْفَةُ: فَذَهَبَ أُولَئِكَ الرَّهْطُ كُلُّهُمْ غَيْرِي " [2]

وعلى الرغم من أن كتب السنة تنوعت فيما بينها فيما تورد من أخبار هذه الفتن؛ بسبب قيود الصحيح، فإنها اجتمعت على إيرادها. وفيما يلي نورد نماذج مما أخبر به الرسولﷺ مما كان بعدهﷺ من أحداثٍ في القرون المتتابعة.

أ- <u>إخباره ﷺ بدور حفيده الحسن بن علي ﷺ في الصلح بين المسلمين .</u>

جاء هذا في قوله ﷺ: ﴿ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [3] . والاختلاف الذي كان بين الإمام عليﷺ ومعاوية بن أبي سفيانﷺ بعد قتل عثمان بن عفانﷺ على يد الثوار معروف في التاريخ؛ إذ لم يبايع معاويةﷺ الإمام عليﷺ بالخلافة حتى يسلم له قتلة عثمان، وتطور

---

١ صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٧) بَابُ إِخْبَارِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ حديث رقم ٢٨٩١ .

٢ صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٦) بَابُ إِخْبَارِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ حديث رقم ٢٨٩١ .

٣ صحيح البخاري ج٩ ص٥٦ ، كتاب الفتن باب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا لَسَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ» (٩/ ٥٦)

الأمر حتى وصل إلى القتال الذي استمر حتى استشهد الإمام عليﷺ واستخلف الإمام الحسنﷺ بعده.

كان هذا من أهم الأحداث التي شهدها التاريخ الإسلامي ؛ لاسيما بعد ما قام به الإمام الحسن ﷺ من التنازل عن الخلافة لمعاوية ﷺ ؛ لحقن الدماء وجمع كلمة الفريقين ، كما أخبر رسول الله ﷺ في الخبر السابق ؛ و لذا أورده الحفاظ و المؤرخون بروايات عدة ، مؤداها أنه " لَمَّا صَالَحَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ مُعَاوِيَةَ قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ قُمْ فَتَكَلَّمْ فَقَامَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التُّقَى وَإِنَّ أَعْجَزَ الْعَجْزِ الْفُجُورُ أَلَا وَإِنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي اخْتَلَفْتُ فِيهِ أَنَا وَمُعَاوِيَةُ حَقٌّ لِامْرِئٍ كَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنِّي أَوْ حَقٌّ لِي تَرَكْتُهُ لِإِرَادَةِ إِصْلَاحِ الْمُسْلِمِينَ وَحَقْنِ دِمَائِهِمْ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَنَزَل " [1] و كان هذا في عام ٤١هـ الذي اصطلح على تسميته عام الجماعة ؛ لاجتماع الكلمة على الاتفاق .

ب-<u>الإخبار بخروج الناس من الإسلام أفواجًا.</u>

كان العام التاسع من الهجرة عام وفود القبائل العربية على رسول اللهﷺ؛ لتدخل في الإسلام " فوجا بعد فوج وزمرة

بعد زمرة فقد كانت تدخل القبيلة بأسرها والقوم بأجمعهم من غير حرب ولا قتال "[2]، حتى كانت تلك الحادثة علامة على قرب موتهﷺ، عن عبد الله بن عباسﷺ قال: ﴿ أَنَّ عُمَرَ ﷺ سَأَلَهُمْ عَنْ قَوْلِهِ ﷻ : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[3]

---

١ فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٦٣)

٢ صحيح البخاري (٦/ ١٧٩) ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ سورة النصر ٢ .

٣ سورة النصر ١

قَالُوا: فَتْحُ المَدَائِنِ وَالقُصُورِ، قَالَ: مَا تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ قَالَ: أَجَلْ أَوْ مَثَلٌ ضُرِبَ لِمُحَمَّدٍﷺ نُعِيَتْ لَهُ نَفْسُهُ ﴾[1]

و ذلك يعني أنه ﷺ قد أدى الأمانة و بلغ الرسالة ، و أكمل الله ﷻ به الدين و أتم به النعمة ، و الذي يلفت النظر أن الرسول ﷺ أشار في سنته إلى خروج الناس منه أفواجًا كما دخلوه أفواجًا ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ، قَالَ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْح . وَرَأَيتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾[2] فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : ﴿لَيُخْرِجَنَّ مِنْهُ أَفْوَاجًا كَمَا دَخَلُوا فِيهِ أَفْوَاجًا ﴾[3] و هو ما كان عقيب وفاته ﷺ ، إذ بادرت كثير من القبائل إلى الردة ، و على رأسهم قبيلة بني حنيفة باليمامة و زعيمهم مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة في حياته ﷺ ، و في خَبَرُ هذه الرِّدَّةِ ، يقول الإمام الذهبي : " لَمَّا اشْتُهِرَتْ وَفَاةُ النَّبِيِّ ﷺ بالنواحي ارتد طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ مِنَ الْعَرَبِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَمَنَعُوا الزَّكَاةَ ، فَنَهَضَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ لِقِتَالِهِمْ فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ وَغَيْرُهُ أَنْ يَفْتِرَ عَنْ قِتَالِهِمْ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا أَوْ عِنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا ... والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ " [4] وهذا ما كان حقًّا في خلافته ﷺ ؛ فأرسل خالد بن الوليد ﷺ الذي سار " بجموعه إلى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب والْتَقَى الجمعان ودار الحصار أيامًا، ثم قتل الكذاب لعنه الله ... وبعث الصديق العلاء بن الحضرمي إلى البحرين وكانوا قد ارتدوا فالتقوا

---

١ صحيح البخاري (٦/ ١٧٩) بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ سورة النصر ٢ ، حديث رقم ٤٩٦٩ .

٢ سورة النصر ١ ، ٢ .

٣ المستدرك على الصحيحين للحاكم ، (٤ / ٥٤١) كتاب الفتن و الملاحم ، حديث رقم ٨٥١٨ .

٤ تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٢٠)

بجواثي فنصر المسلمون وبعث عكرمة بن أبي جهل إلى عمان وكانوا قد ارتدوا، وبعث المهاجر بن أبي أمية إلى أهل النجير، وكانوا قد ارتدوا وبعث زياد بن لبيد الأنصاري إلى طائفة من المرتدة ... " [١]

و هكذا حتى فرغ المسلمون من الردة و المرتدين فكان هذا مصداق قوله ﷺ في هذا الشأن الذي يبتلى به المسلمون بعد موته ﷺ .

و الخلاصة المستنبطة أن رسول اللهﷺ أخبر ببعض ما يكون في أمته من بعده من الحوادث و الوقائع، مما كان مادة أفاد منها كتاب السير والشمائل و التاريخ، و أشاروا بعد وقوعها إلى ورودها في سنة رسوله الله ﷺ.

ت–<u>الإشارة إلى الفتن القادمة بشكل عام.</u>

أشار الرسولﷺ إلى الفتن التي تصيب الأمة بشكلٍ عام، دون أن يخصصها بأحد بعينه أو زمنٍ بعينه إلا بأن يصفها بوصفٍ أو بآخر، من ذلك قولهﷺ: ﴿سَتَكُونُ فِتَنٌ، القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ﴾ [٢]. و السين الداخلة على فعل الكينونة تشير إلى أن مستقبل الزمان يشهد فتنًا " مَنْ طَلَعَ فِيهَا بِشَخْصِهِ قَابَلَتْهُ بِشَرِّهَا " [٣] ، و قد حملها البعض " عَلَى الْعُمُومِ وَقِيلَ إِنَّ أَحَادِيثَ النَّهْيِ مَخْصُوصَةٌ بِآخِرِ الزَّمَانِ " [٤] ، ولكن التاريخ يشهد أن بعض الصحابة اجتنبوا ما عاصرهم من فتن ، كسعد بن أبي وقاص و عبد الله بن عمر ﷺ وغيرهما . و الحق الذي شهد التاريخ به أن هذه الفتن كانت متتابعة كموج البحر في حياة الأمة، فكما ابتلي بها الأوائل،

١ تاريخ الخلفاء للسيوطي(ص:٦١ ، ٦٢)

٢ صحيح البخاري (٩/ ٥١)

٣ فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣١)

٤ المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

ابتلي بها من بعدهم من قرون الأمة حتى يومنا هذا، و الروايات تؤكد هذا المعنى من تعدد الفتن وتواليها يقول ﷺ : ﴿ بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [1] .

و يدخل في هذا النطاق ما نلاحظه من تلك الأسماء التي أطلقها رسول الله ﷺ على بعض الفتن ، يقول ابن عمر ﷺ : ﴿ كُنَّا قُعُودًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ الْفِتَنَ فَأَكْثَرَ فِي ذِكْرِهَا حَتَّى ذَكَرَ فِتْنَةَ الْأَحْلَاسِ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا فِتْنَةُ الْأَحْلَاسِ؟ قَالَ: هِيَ هَرَبٌ وَحَرْبٌ، ثُمَّ فِتْنَةُ السَّرَّاءِ، دَخَنُهَا مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنِّي وَلَيْسَ مِنِّي وَإِنَّمَا أَوْلِيَائِي الْمُتَّقُونَ، ثُمَّ فِتْنَةُ الدُّهَيْمَاءِ لَا تَدَعُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا لَطَمَتْهُ لَطْمَةً فَإِذَا قِيلَ: انْقَضَتْ، تَمَادَتْ ... ﴾ [2]

فهناك فتنة الأحلاس والسراء والدهيماء، وهي إشارات تؤكد تنوع الفتن واستمرار وقوعها حتى تسلم الناس إلى علامات الساعة الكبرى ولعل هذا الوصف يؤكد عمومها، بمعنى أن الأمة تصاب بهذه الفتن مراتٍ عدة؛ ولذا وجدنا علماء الأمة في كل عصرٍ يتجهون لمثل هذه الأحاديث يسترشدون بها في تفسير واقعهم الذين ابتلوا به لاسيما وهي تزداد عمومًا وإبهامًا كلما امتدت في الزمان مبتعدة عن زمن النبوة.

ثانيًا: أحاديث الملاحم.

وتطلق الملاحم على الحروب التي خاضها المسلمون في الماضي ويخوضونها في المستقبل مما جاء به الخبر في سنتهﷺ. وفيما يلي بعض من تلك الأخبار والإشارات.

---

١ سنن الترمذي ت بشار (٤/ ٥٧)

٢ سنن أبي داود (٤/ ٩٤)

أ- الإخبار بفتح الجزيرة العربية وفتح فارس و الروم.

جاء الإخبار عن ذلك في أكثر من موضعٍ، و تحقق بعضه في حياة الرسولﷺ، كالفتح الذي بشر الحقﷻ الرسول ﷺ به سواءٌ أكان ذلك في سورة الفتح التي نزلت في أعقاب صلح الحديبية، و بشرت بفتح مكة الذي كان " فِي السّنة الثَّامِنَة فِي شهر رَمَضَان "[1] أم في سورة النصر التي تشير إلى دخول الناس في دين الله أفواجًا إذ " تواترت الوفود هذه السنة و ما بعدها على رسول الله ﷺ مذعنة بالإسلام وداخلين في دين الله أفواجاً " [2] ثم تم فتح الجزيرة كلها في عهد الخلافة الراشدة .

أما فتح فارس و الروم ، فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﴿ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الخَنْدَقِ، لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: " بِسْمِ اللهِ " فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: " اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ". ثُمَّ قَالَ: " بِسْمِ اللهِ " وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: " اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا " ثُمَّ قَالَ: " بِسْمِ اللهِ " وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ: " اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ﴾[3]وفيه بشارة بفتح الشام وفارس واليمن في غزوة الأحزاب التي ابتلي فيها المسلمون وزلزلوا زلزالاً شديدًا. و في موضعٍ آخر عَنْ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَﷺ مما سمعه من

---

١ المختصر الكبير في سيرة الرسول لابن جماعة الكناني (ص: ٦٥)

٢ الفصول في السيرة لابن كثير (ص: ٢١٥)

٣ مسند أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٦٢٥ ، ٦٢٦)

النبيﷺ : ﴿تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ اللهُ ﴾ [1]

فالرسولﷺ يشير إلى فتوحات مستقبلية في تاريخ الأمة، سجلت كتب التاريخ لنا بعضها " حيث بسط نفوذ المسلمين على جزيرة العرب في عهد أبي بكرﷺ، وتم غزو فارس وبسط النفوذ عليها كاملاً وقتل آخر أكاسرتهم في عهد عثمانﷺ وكذلك تم غزو الروم في عهد عمرﷺ، وتم بسط نفوذ المسلمين على الشام في عهده ". [2]

استأنس العلماء بهذه الأحاديث ووضعوها نصب العين؛ لأنها تساعد في استشراف حاضر الأمة ومستقبلها. يضاف لذلك ما جاءت الإشارة إليه في السنة من آثار بعض هذه الملاحم على الأمة، روى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قوله : ﴿ إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ تَتَنَافَسُونَ ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ ﴾ [3]

و الرسول ﷺ يشير إلى ما يدب في الأمة من الاختلاف و التباغض ، مما صار تصديقه ملء كتب التاريخ بعد ذلك ، ولذا جاء في قوله ﷺ : ﴿ سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا ﴾ [4]

---

١ صحيح مسلم ج٤ ص٢٢٢٥ ، كتاب الفتن ، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال ، حديث رقم ٢٩٠٠ .

٢ الموسوعة في الفتن و الملاحم و أشراط الساعة ، د. محمد أحمد المبيض ، ص٩٥ ، ٩٦ .

٣ صحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٤)

٤ صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، (٤/ ٢٢١٦) ، حديث رقم ٢٨٩٠ .

ب-الإخبار بالملاحم التي تكون قبل الساعة.

أشير سابقًا إلى أحداثٍ تحققت في القرون القليلة التي تلت وفاته ﷺ ، وأصبحت للأمة مما مضى ، أما في هذا الخبر ، فنجد إشارة إلى بعض الملاحم التي تكون بين يدي الساعة ، من ذلك قوله ﷺ : ﴿ اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ مُوْتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ المَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ العَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا ﴾ [1]

والشاهد في الحديث قوله ﷺ : " ثم هدنة تكون بينكم و بين بني الأصفر " فالحفاظ عندما عرضوا للحديث ، أشاروا إلى ما فيه من أخبارٍ تحققت حتى وقتهم ، يقول ابن حجر : " وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ ، التَّقْيِيدُ بِقَوْلِهِ فِيكُمْ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى زَمَنِ الصَّحَابَةِ فَيَكُونُ إِشَارَةً إِلَى مَا وَقَعَ مِنَ الْفُتُوحِ وَاقْتِسَامِهِمْ أَمْوَالَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ " .[2] و عندما عرضوا لهدنة بني الأصفر ، قال ابن حجر : " قَالَ الْمُهَلَّبُ : وَفِيهِ أَشْيَاءُ مِنْ عَلَامَات النُّبُوَّة قد ظهر أَكْثَرهَا وَقَالَ ابن الْمُنِير أما قصَّة الرّوم فَلم تَجْتَمِع إِلَى الْآنَ وَلَا بَلَغَنَا أَنَّهُمْ غَزَوْا فِي الْبَرّ فِي هَذَا الْعَدَدِ فَهِيَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَمْ تَقَعْ بَعْدُ وَفِيهِ بِشَارَةٌ وَنِذَارَةٌ وَذَلِكَ أَنَّهُ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ مَعَ كَثْرَةِ ذَلِكَ الْجَيْشِ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ عَدَدَ جُيُوشِ

١ صحيح البخاري ، كتاب الجزية ، باب الجزية و الموادعة مع أهل الحرب (٤/ ١٠٢) حديث رقم ٣١٧٦ .

٢ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ج١٣ ، ص٨٧ .

الْمُسْلِمِينَ سَيَكُونُ أَضْعَافَ مَا هُوَ عَلَيْهِ " [1] وبنو الأصفر هم الروم "سموا بذلك باسم جدهم الْأَصْفَر بن الرّوم بن عيص بن إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم " [2]

والأحاديث في الملاحم بين يدي الساعة منثورة في كتب السنة، وتشير في جوانب كثيرة إلى ملاحم الأمة مع أجناسٍ متعددة، كالروم وغيرهم. وإذا أنعمنا النظر فيها لاحظنا:

١- أن الإشارات في هذا الجانب أقل وضوحًا من الإشارات التي تعلقت بأناسٍ وجماعات قريبين من عهد النبوة كالصحابة والتابعين، فيزداد الوضوح في النص كلما اقتربنا من عهد النبوة، ويقل الوضوح كلما ابتعدنا عنه.

٢- أن العلاقات بين الأمة وغيرها من الأمم كالروم والفرس والأتراك والحبش مستمرة ومترابطة ومتطورة من القديم للحديث، فكان للمسلمين مع الروم ملاحم قديمة، ويكون لهم معهم ملاحم قبل الساعة. وإلى جانب ذكر الأمم، ذكرت العديد من المدن التي طالما كان لها دور في صناعة التاريخ في القديم والحديث مثل مكة والمدينة، والشام ودمشق والعراق؛ إذ كانوا مراكز مهمة في الدولة الإسلامية قديمًا، وما زالت هذه المدن في بؤرة التاريخ تموج بالأحداث حتى الآن.

ثالثًا: أحاديث الأشراط.

وتتناول علامات الساعة الصغرى؛ إذ ذكر العلماء أن الآيات[3] هي العلامات الكبرى وعظام الأمور التي تكون قبيل الساعة و تدل على شدة اقترابها؛ ولذلك ورد في القرآن الكريم لفظ الأشراط في الدلالة على العلامات التي

١ فتح الباري لابن حجر (٦/ ٢٧٩)

٢ فتح الباري لابن حجر (١/ ١٤٤)

٣ لفظة وردت في حديث رسول الله ﷺ .

ظهرت ، و " بدأت ببعثة النبيﷺ و هي بعيدة نسبيًّا عن الساعة "[١] ؛ إذا ما قيست بغيرها من الأشراط والآيات.

ومن " تتبع استخدام النبي ﷺ لكلمة الآيات في علامات الساعة يلحظ أنه استخدمها فقط مع العلامات الكبرى للساعة " [٢] ، و نماذج من السنة توضح الأمر ففي الأشراط روى معاذ بن جبل ﷺ عن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ سِتٌّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، وَفَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَمَوْتٌ يَأْخُذُ فِي النَّاسِ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ، وَفِتْنَةٌ يَدْخُلُ حَرْبُهَا بَيْتَ كُلِّ مُسْلِمٍ، وَأَنْ يُعْطَى الرَّجُلُ أَلْفَ دِينَارٍ فَيَتَسَخَّطَهَا، وَأَنْ تَغْدِرَ الرُّومُ فَيَسِيرُونَ فِي ثَمَانِينَ بَنْدًا، تَحْتَ كُلِّ بَنْدٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا ﴾[٣] .

وفي الآيات[٤]حديث حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ ، قَالَ: ﴿ اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ قَالَ: " إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ – فَذَكَرَ – الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ،وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ﴾ [٥] و الملاحظ أن ست علامات في الحديث الأول ، و عشرة في الحديث الثاني من علامات الساعة ، مع اعتبار أن الأولى من الأشراط الصغرى ، إذا قيست بالثانية وهي آيات الساعة الكبرى .

وقد اهتم بها العلماء والمؤرخون خاصةً مع تحقق بعضها في العصور المختلفة، فأثبتوها في كتب الشمائل والتاريخ والفتن، معتمدين أنها من أقوالهﷺ وتتحقق دون ريب.

---

١ الموسوعة في الفتن و الملاحم و أشراط الساعة ، ص٥١ .

٢ الموسوعة في الفتن و الملاحم و أشراط الساعة ، ص٥٢ .

٣ مسند أحمد مخرجا (٣٦/ ٣١٨)

٤ من آيات قرب الساعة .

٥ صحيح مسلم (٤/ ٢٢٢٥)

المبحث الثالث: أثر تلك النظرة على النزعة التاريخية عند المسلمين

القرآن الكريم المصدر الأول الذي يستمد منه المسلمون دينهم وعقيدتهم، وبطابعه وصبغته يكتسبون تمايزهم الفكري والحضاري في كافة المجالات، تليه السنة النبوية، فهما معًا المصدر الأساس لكل ما أنتجه المسلمون من علومٍ وفنون؛ فعندما تشبعت نفس المسلم بما فيهما من أوامر ونواهٍ، قعد قواعد علم الفقه وعندما تشبعت بما فيهما من بلاغةٍ وبيان، شاد علوم البلاغة والتفسير. وتشبع المسلم بما فيهما من تقدير العقل واحترامه ، و بما فيهما من الحث على النظر و التأمل و التدبر ، فأبدع المنهج التجريبي ، و إليهما يرجع الفضل في تنبيه المسلم إلى علم التاريخ و تسجيله ، فالقرآن أضفى على التاريخ صفة العالمية ، و بالتالي " لم يجعل العرب كأمةٍ محصورة ضمن حدودها الجغرافية والتي تكَوَّن لها ماضيها المحصور في قصص الأيام وبيوتها القبلية ، بل نقلهم إلى حضاراتٍ متعددة و أطلعهم على ثقافاتٍ متنوعة ولم يكتف بذلك ، بل أراد منهم أن يتصدوا لريادة المناصب المتقدمة في صياغة الحضارات و تطويرها ودفعها وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بموقع الشهودية والوسطية "[1] يقول ﷻ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2] وعن السنة فقد أكدت على ما جاء به القرآن. وقد انعكست هذه النظرة للتاريخ على المسلم، فكان لها أثرها في اكتسابه هذا العلم وتطوره من طورٍ لطور، ومن أظهر آثارها:

- وجود **من تخصص في الكتابة التاريخية** منذ القرن الهجري الأول، بحيث أصبح التاريخ علمًا من العلوم الإسلامية، من أوائل رجاله عبيد بن شرية

١ النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ ، حسن سلمان ، ص

٢ سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .

الجرهمي اليمني[١] صاحب كتابي " الأمثال و أخبار الملوك الماضين " ووهب بن منبه[٢]، و له كتابا " الملوك المتوجة و المبتدأ " و هشام بن محمد بن السائب الكلبي[٣]، وله " كتب كثيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست يبلغ عددها ١٤٠ كتابًا، منها كتاب جمهرة النسب و كتاب الأصنام " [٤]. وعلى هؤلاء وغيرهم اعتمد المؤرخون المسلمون فيما بعد إلى جانب ما اعتمدوا عليه من مصادرهم التاريخية وعلى رأسها القرآن والسنة.

- لم يقتصر الأمر على هؤلاء ، بل ظهر كثير غيرهم نسجوا على منوالهم حتى صنفهم البعض إلى أنماطٍ أشهرها المؤرخون من " **رجال الدولة و رجال الدين** "[٥] من رجال الدولة أبو الفداء صاحب حماة [٦] ومن رجال الدين الإمام الذهبي[٧] ، وهذا يؤكد على تشرب المجتمع بمختلف طبقاته لما جاء

---

١ الذي عاش طويلاً ؛ إذ أدرك رسول الله ﷺ دون أن يسمع منه ، و مات في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان .

٢ توفي ١١٤هـ ، و هو من التابعين ، أخرج له أصحاب الصحيح و السنن و غيرهم كثير من علماء الحديث .

٣ توفي ٢٠٤هـ ، و برع في علوم كثيرة على رأسها الأنساب و الأخبار و أيام العرب .

٤ التاريخ و المؤرخون العرب ، د.السيد عبد العزيز سالم ، ص٤٩ .

٥ فكرة التاريخ عند المسلمين ، د. قاسم عبده ، ص١٢٢ .

٦ هو أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد صاحب حماة ؛ إذأقامه الملك الناصر سلطانًا مستقلاً عليها ، و أركبه بشعار الملك . هومؤرخ جغرافي، قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين و الفلسفة والطب وعلم الهيئة ، وضع المختصر في أخبار البشر ، ويعرف بتاريخ أبي الفداء، ترجم إلى الفرنسية واللاتينية وقسم منه إلى الانكليزية.

٧ هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، التُركماني الأصل الدمشقي ، هو الإمام الحافظ محدِّث عصره وخاتمة الحفَّاظ، ومؤرخ الإسلام . تصانيفه كثيرة تقرب =

في القرآن و السنة من توعية بالتاريخ و تنبيه إليه كما يشير إلى نقطة التنوع في مدوني التاريخ . ولم تقف المسألة عند نموذج أو اثنين، بل اتسعت حتى ظهرت مدارس بأكملها لكلٍّ منها رؤيتها التاريخية التي تتبناها طبقاتها المختلفة، كما رأينا في مدرسة التاريخ في المدينة، ومدرسة التاريخ في البصرة، ثم المدرسة المصرية والمدرسة الشامية في عصور لاحقة.

- ظهر **التنوع في الكتابات التاريخية** كذلك، فعندما تشبع المسلم بما في القرآن والسنة من عروض تاريخية للماضي والحاضر والمستقبل أبدع ألوانًا متميزة من التاريخ، أحرز فيها الأولية، فكانت الأمم تبعاً له فيها، أطلق عليها أنماط الكتابة التاريخية، أهمها" السيرة، الطبقات والتراجم، التواريخ العامة، التواريخ المحلية، تواريخ المدن، الرسائل ذات الموضوع التاريخي الواحد، فلسفة التاريخ، تاريخ التاريخ "[1]. و ما من شكٍ أن تلك الأنماط جاءت متأثرة بما في القرآن و السنة من جانب و مؤثرة من جانب آخر، فعلم التاريخ بما كتبه و طوره المسلمون كان "أداةً ثقافية لخدمة مجتمعهم، فقد جاء كل نمط من أنماط الكتابة التاريخية لخدمة هدف محدد من أهداف الثقافة العربية الإسلامية " [2]، كما كان بعضها سببًا تطور عنه نمط آخر من أنماط هذه الكتابة . فالتراجم جاءت متأثرة بما في القرآن من قصص أفرادٍ بأعينهم من

=

من المائة، منها: تاريخ الإسلام؛ سير أعلام النبلاء؛ طبقات الحفاظ؛ طبقات القراء؛ مختصر تهذيب الكمال؛ الكاشف؛ التجريد في أسماء الصحابة؛ والميزان في الضعفاء؛ المغني في الضعفاء؛ تلخيص المستدرك للحاكم؛ مختصر سنن البيهقي وغيرها. ولد وتوفي بدمشق ٧٤٨هـ .

١ فكرة التاريخ عند المسلمين ، د. قاسم عبده قاسم ، ص١٠٦ .

٢ المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

الصالحين والفاسدين، مثل ذي القرنين وطالوت وجالوت وفرعون ... الخ. والسيرة النبوية ألهمت المؤرخين نمطًا آخر من السير، هو السير الملكية " سير الخلفاء والملوك والسلاطين. و إذا كانت السيرة النبوية قد جاءت لإبراز دور النبي ﷺ ، فإن سير الخلفاء و الملوك و السلاطين جاءت لتوضيح دور زعماء المجتمع المسلم و مدى مساهمتهم في بناء هذا المجتمع و حمايته " [١]

- تظهر أوضح الآثار المستوحاة من القرآن والسنة في **منهج الكتابة التاريخية**، فوجدنا فيها صورًا متعددة لعرض المادة التاريخية، من أهمها **التاريخ العالمي والتاريخ المحلي الدنيوي والديني** فقد كان ما ورد في القرآن من أخبار الأمم وأنباء السابقين دافعًا للعلماء للاهتمام بتاريخ الأنبياء ثم وسعوا نظرتهم شيئًا فشيئًا. حتى وجدنا كتب التاريخ تتضمن أقسامًا عدة، منها:

أ- تاريخ الحياة الذي بدأ مع خلق السموات والأرض؛ لتهيئة الحياة للإنسان.

ب-تاريخ العقيدة السماوية، ببيان تاريخ الأنبياء و بيان دورهم في الحياة الإنسانية، من حيث القيام بالمهمة التي كلفوا بها من عند الله ﷻ بدعوة الناس إلى عبادة الله و ترك الشرك ، و كذا ما قاموا به من دورٍ إصلاحي على مدار تاريخ البشر من لدن آدم عليه السلام حتى سيدنا محمد ﷺ .

ت- السنة – أيضًا –أوجدت حرص المسلمين على معرفة سيرة الرسول ﷺ ومغازيه، ما دفعهم إلى الاهتمام بالمغازي و السير، كما نبهتهم إلى تأريخ الفتن التي أطلت عليهم والتي لما تطل بعد، فوضعوا تأريخًا للمستقبل، تضمن عرض الفتن و الملاحم و أشراط الساعة التي تعرض للأمة خاصة والبشرية عامة من قبل قيام الساعة حتى تسلمنا للساعة نفسها و هذا أضفى

١ المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

على التاريخ الذي وضعوه الصبغة الشمولية. وإن نظرةً في كتب السير والتاريخ، تصدق ما قلنا من الناحية التطبيقية؛ إذ عرض العلماء هذه الأخبار الواردة في القرآن والسنة في دوائر يتسع بعضها عن بعض، كالتالي:

الأولى: تمثل القسم الذي اهتم بالتاريخ الإسلامي من حيث بدأه عمر ﷺ بالاتفاق مع الصحابة، أي بتاريخ الرسول ﷺ بعد الهجرة ، ومن هذه الكتب تاريخ الإسلام للذهبي[1] ؛ إذ بدأ تاريخه بالسيرة النبوية و المغازي ثم عهد الخلفاء الراشدين ثم عهد معاوية ... و هكذا حتى عام ٧٠٠هـ .

الثانية: اتسعت فيما تورد من تاريخ و أخبار؛ لتبدأ التاريخ من الرسل السابقين عليهم السلام بدءًا من آدم عليه السلام ، وممن

التزمه الإمام السيوطي[2] في الشماريخ في علم التاريخ ؛ إذ صدر كتابه بباب في مبتدأ التاريخ منذ أهبط آدم عليه السلام من الجنة حتى وصل إلى التاريخ الهجري عند المسلمين[3]، وصاحب حماة[4] الذي ألف المختصر في أخبار البشر، صدره بعمود التواريخ القديمة[5]، أورد فيه قصص الأنبياء على الترتيب، و أتبعه

---

١ سبقت ترجمته .

٢ هو الإمام الموسوعي في الحديث والتفسير واللغة والتاريخ والأدب والفقه وغيرها من العلوم . وُلد في القاهرة ونشأ فيها. رحل إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب ثم عاد إلى مصر فاستقر بها ، وذكر الأستاذ أحمد الشرقاوي في كتابه مكتبة الجلال السيوطي أن عدد مؤلفاته بلغ ٧٢٥ مصنفًا. من أشهر كتبه: الجامع الكبير؛ الجامع الصغير في أحاديث النذير البشير؛ الإتقان في علوم القرآن؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور؛ تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك؛ الخصائص والمعجزات النبوية؛ طبقات الحفاظ؛ طبقات المفسرين؛ الأشباه والنظائر .

٣ عرض ذلك بإيجاز .

٤ ترجم له سابقًا .

٥ هكذا أطلق عليه في الكتاب .

بتاريخ الأمة الإسلامية من النبوة حتى عصره. ويدخل في ذلك كتب قصص الأنبياء، مثل ما قام به الإمام أبو الفداء بن كثير[١]. وقد أسهم هؤلاء بجهودهم هذه في وضع بذور علم تاريخ الأديان.

الثالثة: توسعت عن سابقتيها؛ فبدأت التاريخ ببداية الخلق خلق السماء والأرض والكائنات، و من ثم خلق آدم عليه السلام، وكيف توالى الرسل من أبنائه ، وهذا القسم إلى جانب الإسهام في وضع المدخل لعلم تاريخ الأديان ، كان يمثل وجهة نظرٍ إسلامية في بداية التاريخ الطبيعي . الجدير بالذكر أن هذا القسم من أكثرها من حيث الكتابة فيه؛ إذ اتجه إليه الكثير من العلماء والمؤرخين والإخباريين، على رأسهم الإمام الطبري[٢] في تاريخ الرسل والملوك، وابن الأثير[٣]

---

١ هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر البصري الدمشقي صاحب التفسير المشهور "تفسير ابن كثير " نشأ عالمًا محققًا ثقة متقنًا، وكان غزير العلم واسع الاطلاع إمامًا في التفسير والحديث والتاريخ، ترك مؤلفات كثيرة قيمة أبرزها البداية والنهاية في التاريخ وكتاب تفسير القرآن العظيم .

٢ هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب. إمام المفسرين ، المولود بطبرستان . أثنى العلماء على الطبري كثيرًا، فقالوا: إنه ثقة عالم، أحد أئمة أهل السنة الكبار، يؤخذ بأقواله، ويُرجع إليه لسعة علمه، وسلامة منهجه. يعتبر أبًا للتفسير ؛ إذ وضع أول تفسير كاملٍ للقرآن "جامع البيان عن تأويل آي القرآن " كما يعد أبا التاريخ ؛ لأنه وضع تاريخ الأمم والملوك .

٣ هوعلي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري أبو الحسن عز الدين ابن الأثير: المؤرخ الإمام من العلماء بالنسب والأدب.

ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، وسكن الموصل ، وتجول في البلدان، وعاد إلى الموصل، فكان منزله مجمع الفضلاء والأدباء، وتوفي بها.

من تصانيفه : الكامل في اثني عشر مجلدا، مرتب على السنين بلغ فيه عام ٦٢٩ هـ ، أكثر من جاء بعده من المؤرخين عيال على كتابه هذا، و "أسد الغابة في معرفة الصحابة " مرتب على الحروف، و " اللباب " ، و " تاريخ الدولة الأتابكية " و غيرها .

في الكامل في التاريخ، وابن الجوزي[١] في المنتظم والمقدسي[٢] في البدء والتاريخ، وابن قتيبة الدينوري[٣] في المعارف، وأبو حنيفة الدينوري[٤] في الأخبار الطوال. فالطبري أطلق على كتابه اسم تاريخ الرسل والملوك، وافتتحه بتعريف الزمان، وبيان بدايته وماهية العرش والكرسي والقلم وخلق آدم عليه السلام، وهكذا أتى على تاريخ الرسل، ثم تبعه بتاريخ الأمة حتى عصره.

---

١ هو الإمام العلامة الحافظ، المفسِّر المحدث المؤرخ شيخ الإسلام عالم العراق جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي

كتب بخطه كثيرًا من كتبه إلى أن مات. كان ذا حظٍ عظيم، وصيت بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكبراء . ومن تصانيفه : زاد المسير في علم التفسير؛ جامع المسانيد؛ المغني في علوم القرآن؛ وتذكرة الأريب في اللغة؛ الموضوعات؛ الواهيات؛ الضعفاء؛ المنتظم في التاريخ؛ الناسخ والمنسوخ؛ غريب الحديث؛ الوفا في فضائل المصطفى.

٢ هو المطهر بن طاهر المقدسي ، أثبت نسبة الكتاب إليه المستشرق كليمان هوار بعد أن نسب في كشف الظنون و خريدة العجائب إلى أحمد بن سهل البلخي ، إلا أن البلخى توفى سنة ٣٢٢ ، وكتاب البدء والتاريخ صنف سنة ٣٥٥ هـ.

٣ هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينورِي. عالم وفقيه وأديب وناقد ولغوي، موسوعيُّ المعرفة ، من أعلام القرن الثالث للهجرة. ولد بالكوفة، ثم انتقل إلى بغداد، حيث استقر علماء البصرة والكوفة، فأخذ عنهم الحديث والتفسير والفقه واللغة والنحو والكلام والأدب والتاريخ ، مؤلفاته متعددة، وتشمل المعارف الدينية والتاريخية واللغوية والأدبية، ومن أشهر مؤلفاته التاريخية : كتاب الأنواء ، عيون الأخبار؛ الميسر والقداح؛ كتاب المعارف.

٤ هو أحمد بن داود، ويكنى بأبي حنيفة، ويُسمّى أيضًا عبد الله بن علي العشاب ، من علماء المسلمين الذين أحبوا الرحلات ؛ فزار كثيرًا من بلاد العرب مثل:المدينة المنورة وبغداد وفلسطين. عُرف الدينوري بتفوقه في علم النبات ، و ألف فيه كتابًا في ستة مجلدات على هيئة موسوعة مفصّلة ، و كان بحق أول المؤلفين العرب في علم النبات ، بالإضافة إلى هذا الكتاب في التاريخ ، وعدة مؤلفات في العلوم الأخرى تزيد على العشرين كتابًا.

الرابعة : وهذه أضافت إلى ما سبق ما جاء في السنة من أخبار عما تكون عليه الفتن و الملاحم في الأمة وعلامات الساعة ، كما نجد في كتاب البداية و النهاية لابن كثير[١] ؛ حيث أردف في نهاية كتابه كتاب عن الفتن و الملاحم و أشراط الساعة ، وما يكون من أهوال القيامة حتى يدخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار وهذا القسم و إن لم يكن كثيرًا في هذا الجانب الممتد الذي يعرض له ، وجدناه في ركنٍ آخر من أركان التآليف الإسلامية ، وهو ركن شمائل النبوة و دلائلها ، و كتبه كثيرة ، منها : تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار[٢] – دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني[٣] – دلائل النبوة للبيهقي[٤] – دلائل النبوة لإسماعيل الأصبهاني[٥] – معجزات الرسول من كتاب دلائل النبوة

---

١ سبقت الترجمة للإمام ابن كثير – رحمه الله –

٢ هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي أبو الحسين المعتزلي ، كان شيخ المعتزلة في عصره ، و لقبوه " قاضي القضاة " و لم يطلقوا هذا اللقب على غيره. له تصانيف كثيرة، منها: تنزيه القرآن عن المطاعن – المجموع في المحيط بالتكليف – شرح الأصول الخمسة – المغني في أبواب التوحيد والعدل – تثبيت دلائل النبوة – متشابه القرآن .

٣ هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني ، حافظ مؤرخ من الثقات في الحفظ والرواية ، ولد ومات في أصبهان. من تصانيفه : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – معرفة الصحابة – طبقات المحدثين والرواة – دلائل النبوة ... و غيرها .

٤ هو أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، من أئمة الحديث و الفقه الشافعي ، صنف زهاء ألف جزء، منها : السنن الكبرى – السنن الصغرى– الأسماء والصفات – ودلائل النبوة ، و في الحديث : الترغيب والترهيب – الجامع المصنف في شعب الإيمان و غيرها كثير .

٥ هو إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، =

لابن كثير[١] – الخصائص الكبرى للسيوطي[٢] وغيرها ، و كلها أسهمت في وضع علم الشمائل و علم الفتن و الأشراط .

- لم تقتصر العلوم التاريخية المستنبطة من القرآن والسنة على ما ذكرنا، بل ازدادت حتى أدرك العلماء ضرورة الكتابة في **فلسفة التاريخ**، فكتبوا في " الأسس النظرية للتاريخ كعلمٍ، وأشهر من كتب في هذا المجال ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون[٣] وتكمن أهميته في نظرته إلى التاريخ وآرائه التي طرحها في مقدمته عن علم التاريخ ؛ إذ جاء بها آراء هامة تمثل حصاد التجربة العربية الإسلامية في مجال المعرفة التاريخية " [٤]، و أفضى ذلك بدوره إلى علوم تاريخية أخرى مثل الكتابة في **تاريخ التاريخ** كما نجد عند أبي الخير شمس الدين السخاوي[٥] في كتابه **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم**

=

الملقب بقوام السنة: من أعلام الحفاظ ، كان إماما في التفسير والحديث واللغة . من كتبه الجامع في التفسير، الإيضاح في التفسير، دلائل النبوة ، التذكرة ، سير السلف ،إعراب القرآن ، المبعث والمغازي .

١ سبقت الترجمة .

٢ سبقت الترجمة .

٣ عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، من ولد وائل بن حجر: الفيلسوف المؤرخ العالم الاجتماعي البحاثة أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس ، رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والاندلس، وتولى أعمالا، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس ، ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق ، توفي ٨٠٩هـ .

٤ فكرة التاريخ عند المسلمين ، د. قاسم عبده ، ص١١٢ ، ١١٣ .

٥ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي الشافعي –نسبة إلى سخا شمال مصر–هو مؤرخ كبير وعالم حديث وتفسير وأدب شهير

=

التاريخ ، و قصد فيه " إلى الدفاع عن الثقافة التاريخية " .[١] ثم استنباط **علم السنن الربانية** من القرآن والسنة والتنظير له في العصر الحديث، ومما يتصل منها بموضوع البحث السنن التاريخية والاجتماعية وقد ذكرنا – سابقًا– كثيرًا مما ألف فيها.

و هذا يتأكد لنا أثر القرآن و السنة على التأليف الإسلامي في مجال التاريخ ، ولا يقلل منها ما أخذه العلماء على بعض مصنفيها من عدم الالتزام بالتوثيق ، لاسيما فيما يتعلق بالأخبار الضاربة في قدم التاريخ البشري[٢] ، أو ما أخذوه على البعض من إقحام آرائهم في تأويل ما جاء في أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة[٣] ؛ و ذلك لأن الجهود العلمية الإسلامية تتابعت في نقد كلٍّ و بيان الحق والباطل في كلٍّ ، فهي في النهاية تدل في مضمونها على وعي العقل الإسلامي و تنبهه بشكل كبير لما جاء في الكتاب و السنة في هذا السياق .

=

من أعلام مؤرخي عصر المماليك .ولد وعاش في القاهرة، ومات بالمدينة المنورة سافر في البلدان سفراً طويلاً وصنف أكثر من مائتي كتاب أشهرها الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ترجم نفسه فيه ، توفي عام ٩٠٢هـ .

١ مقال " الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ " ، أ. محمد الخولي ، مجلة البيان الالكترونية ، ١٩٩٨/٣/١٢م.

٢ كما عرف عن الإمام الطبري في تاريخه .

٣ كما نرى عند بعض المهتمين بهذا العلم حاليًا ، فيدفعهم الفضول و التسرع إلى الخطأ في تنزيلها على الواقع .

الخاتمة

بحث متواضع عن أثر القرآن الكريم الذي اشتمل على نبأ السابقين وخبر المتأخرين، وكذا السنة النبوية التي فصلت القول في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، أثرهما في النزعة التاريخية عند المسلمين. ويمكن القول: إننا استطعنا الوصول إلى عدة نتائج في نهاية هذا البحث، هي:

١- الاهتمام بالتاريخ واضح في القرآن والسنة ، وإن لاحظنا تركيز القرآن الكريم على تاريخ الماضي الموغل في القدم؛ لأن كثيرًا من البشر لم يره ولم يعاصره، فالوحي الإلهي هو المصدر الوحيد لمعرفته؛ واستعمل القرآن في ذلك ألفاظ عدة، اصطلح على تسميتها بالدلائل اللفظية والمعنوية على التاريخ في القرآن الكريم.

٢- ركزت السنة على أخبار المستقبل؛ وذكرنا أن هذا لا يبتعد عن موضوع البحث؛ لأن المستقبل أحداث مترتبة على حاضر نتج بدوره عما مضى، وفي الوقت نفسه تعد أخبار الرسولﷺ في هذا الشأن دلائل على نبوته؛ لأن هذه الأخبار لا تكون إلا عن وحي، كما أنه تعد إيناسًا منهﷺ وتنبيهًا لأمته في كل عصر تتوالى فيه هذا الأحداث وإن اختلفت مسمياتها[١].

٣- القرآن الكريم بما تضمنه من قصص الأنبياء والرسل والأمم الغابرة، حفظ تاريخ الأنبياء ودورهم في حياة البشر منذ القدم.

٤- السنة النبوية جعلت المسلم على بينةٍ من أمره، خاصة فيما يتعلق بأمر الفتن وأشراط الساعة؛ لأن النبي ﷺهو النبي الخاتم، فكان له دورﷺ بهذه الأخبار في بيان المستقبل بما فيه من ملاحم وحروب وفتن وأشراط صغرى وكبرى.

---

١ بين الفتن و الملاحم و الأشراط .

٥- كان للنزعة التاريخية في القرآن والسنة أثرٌ كبير في ظهور عدة علوم إسلامية في العصور المتوالية فقديمًا ظهر علم الشمائل والدلائل النبوية، وكانت الأحاديث الواردة في الفتن والملاحم وحوادث آخر الزمان من شمائلهﷺ ودلائل نبوته.

٦- كان علم التاريخ الإسلامي من العلوم التي اعتمدت في قيام جزءٍ كبير منها على تلك النزعة التاريخية؛ إذ أكسبته تميزه بما تضمنه من النظرة الشمولية للتاريخ الإنساني من حيث استعراض تاريخ عقيدة التوحيد، وكيف قام بها وبلغها كل رسول من الرسلعليهم السلام من القديم، وكذا استعراض ما تؤول إليه أحوال البشر كلهم في نهاية الحياة من فتن وأحداث متتابعة تسلمهم إلى الساعة.

٧- كان علم الفتن والملاحم والأشراط من العلوم التي اعتمدت على تلك النزعة في القرآن والسنة. الجدير بالذكر أنه من العلوم التي ظهرت قديمًا، ولكنه لا زال في حاجةٍ إلى الدراسة والتبيين، ويمكن القول إنه من العلوم الإسلامية التي يفترض على العلماء الاهتمام بها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الأمة؛ لأنه يتضمن بيانًا وعرضًا لحال الأمة في عصورٍ متعددة منها العصر الحاضر، فهو يقترن بمصير الأمة دائمًا.

٨- يعد علم السنن التاريخية من العلوم التي قامت استجابة لتلك النزعة في القرآن والسنة؛ إذ انتبه إليه بعض العلماء قديمًا، كشيخ الإسلام ابن تيمية، وألقى عليه الضوء بعض علماء العصر الحديث كالأستاذ الإمام محمد عبده والسيد محمد رشيد رضا، وكتب فيه بعض العلماء والباحثين، ولكنه مع سابقه من العلوم التي يوصى بمتابعة الدراسة فيها وتوسيعها؛ لتفيد منهما الأمة في الوقت الراهن.

٩- يضاف لذلك أن تلك النزعة أثرت في علوم أخرى، مثل التاريخ الطبيعي، وتاريخ الأديان، فقد أثرتهما، وأعطتهما صبغة إسلامية، يتميزان بها عما يناظرهما.

١٠-من أهم نتائج البحث أن تلك النزعة التاريخية بما هي عليه في القرآن والسنة من أهم عوامل تثبيت الإيمان و العقيدة عند المسلم؛ إذ تبين كيف أن إرادة الله و علمه حكما كل شيء قديمًا و حديثًا، و كيف عاصر القرآن والسنة التاريخ كله بما كان منه و ما لم يأتِ بعد، فكان المستقبل كالماضي في علم الله ﷻ.

المصادر والمراجع

أولاً: تفسير القرآن الكريم.

١- البقاعي: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (ت: ٨٨٥هـ): نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، د . ت

٢- البغوي: أَبُو مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ بن محمد بن الفراء الشافعي (ت ٥١٠هـ): معالم التنزيل في تفسير القرآن " تفسير البغوي " تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط ١ سنة ١٤٢٠هـ.

٣- ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن البغدادي " ت ٥٩٧هـ " : زاد المسير في علم التفسير ، المكتب الإسلامي بيروت ، ط سنة ١٤٠٤هـ .

٤- الخطيب : محمد عبد اللطيف : أوضح التفاسير المطبعة المصرية ، ط ٦ ، رمضان ١٣٨٣ هـ – فبراير ١٩٦٤ م

٥- الرازي : فخر الدين محمد بن عمر التميمي الشافعي (ت٦٠٤ هـ) : التفسير الكبير ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى ، سنة ١٤٢١ هـ .

٦- رضا : محمد رشيد . (ت : ١٣٥٤هـ) : تفسير المنار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١٩٩٠ م

٧- الزمخشري : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد " ت ٥٣٨هـ " : تفسير الكشاف ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط الأولى سنة ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

٨- أبو زهرة : محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد (ت ١٣٩٤هـ) : زهرة التفاسير ، دار الفكر العربي .

٩- السعدي : عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله (ت : ١٣٧٦هـ) : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، مؤسسة الرسالة ، ط١ سنة ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م .

١٠- أبو السعود : محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (ت : ٩٨٢هـ) : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، دار إحياء التراث العربي – بيروت
١١- السيوطي : عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين (ت ٩١١ هـ) : الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، دار الفكر ، بيروت ، سنة ١٩٩٣ م .
١٢-الشعراوي : محمد متولي (ت: ١٤١٨هـ) : تفسير الشعراوي " الخواطر " ، مطابع أخبار اليوم .
١٣-الشوكاني : محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (ت : ١٢٥٠هـ) – فتح القدير ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت ، ط ١ سنة ١٤١٤ هـ
١٤-الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد (ت ٣١٠ هـ) : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، دار الفكر ، بيروت ، سنة ١٤٠٥ هـ .
١٥-طنطاوي : محمد سيد (شيخ الأزهر الأسبق) : التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الفجالة – القاهرة ، ط١ سنة ١٩٩٧م .
١٦-ابن عطية : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام الأندلسي المحاربي(ت : ٥٤٢هـ) : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط ١ سنة ١٤٢٢ هـ .
١٧-الغزالي : محمد (الشيخ) : نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ٧ سنة ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٥ م .
١٨-القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري " ت ٦٧١هـ " : الجامع لأحكام القرآن ، تقديم : هاني الحاج ، تحقيق و تخريج : عماد زكي البارودي – خيري سعد ، المكتبة التوفيقية القاهرة .

١٩–القنوجي : أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري (ت: ١٣٠٧هـ)
فتحُ البيان في مقاصد القرآن ، طبعه وقدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري ، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت ، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م .
٢٠–ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي " ٧٠٠ – ٧٧٤ هـ" : تفسير القرآن العظيم ، تحقيق : سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط٢ سنة ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م .
٢١– نخبة من أساتذة التفسير : التفسير الميسر ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م .
٢٢–النسفي : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين (ت : ٧١٠هـ) : مدارك التنزيل وحقائق التأويل " تفسير النسفي " تحقيق وتخريج أحاديث: يوسف علي بديوي ، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو دار الكلم الطيب بيروت ، ط ١ سنة ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م .

ثانيًا : كتب الحديث الشريف .

١– ابن الأثير الجزري : مجد الدين أبو السعادات بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم " ت ٦٠٦هـ " النهاية في غريب الحديث والأثر ، المكتبة العلمية بيروت ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي ط سنة ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .
٢– البخاري : محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي " ت ٩٢٦هـ " : الجامع الصحيح ، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير اليمامة ، بيروت، ط الثالثة سنة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

٣- البيهقي : أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني (ت: ٤٥٨هـ) : السنن الكبرى ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ط٣ سنة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.
٤- الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي " ت ٢٧٩ " : سنن الترمذي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر و آخرون ، دار إحياء التراث ، بيروت لبنان ، بدون تاريخ .
٥- الحاكم : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري(ت: ٤٠٥هـ) : المستدرك على الصحيحين ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ سنة ١٤١١ – ١٩٩٠ .
٦- ابن حبان : أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي الدارمي البُستي " ت : ٣٥٤هـ " : صحيح ابن حبان ، ترتيب : ابن بلبان ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط ٢ سنة ١٤١٤ – ١٩٩٣م .
٧- ابن حجر : أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني الشافعي " ت ٨٥٢هـ " : فتح الباري ، دار المعرفة بيروت سنة ١٣٧٩هـ .
٨- ابن حنبل : أبو عبد الله أحمد الشيباني " ت ٢٤١هـ " : مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد ، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ، ط١ سنة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١.
٩- أبو داود : سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني " ت : ٢٧٥هـ" : سنن أبي داود : تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ، د . ت

١٠- الطبراني : أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي " ت: ٣٦٠هـ" : المعجم الكبير تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مكتبة ابن تيمية – القاهرة ، ط٢ .

١١-العظيم آبادي : شرف الحق أبو عبد الرحمن محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر الصديقي " ت: ١٣٢٩هـ " : عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط٢ سنة ١٤١٥ هـ .

١٢-مسلم : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري " الإمام " ت ٢٦١هـ " : صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث بيروت .

ثالثًا : كتب المعاجم و اللغة .

١- الإدارة العامة للمعجمات و إحياء التراث القاهرة : المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية ، ط٤ سنة ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .

٢- الأزهري : أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري " ت : ٣٧٠ " : تهذيب اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون – محمد علي النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ، ط سنة ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م

٣- الجوهري : أبو نصر إسماعيل بن حماد " ت :٣٩٨هـ " : تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين بيروت ، ط ٤ سنة ١٩٩٠م .

٤- الراغب : أبو القاسم الحسين بن محمد " الراغب الأصفهاني " ت ٥٠٢هـ " : المفردات في غريب القرآن ، راجعه و قدم له : وائل أحمد عبد الرحمن ، المكتبة التوفيقية القاهرة ، ط سنة ٢٠٠٣م .

٥- الزبيدي : محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى : تاج العروس من جواهر القاموس ، دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، بدون تاريخ .

٦- ابن سيده : أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي " ٣٩٨- ٤٥٨هـ " : المحكم و المحيط الأعظم ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

٧- الطرابلسي : أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله اللواتي الأَجْدَابي " ت ٤٧٠هـ" : كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة العربية ، تحقيق: السائح علي حسين ، دار اقرأ للطباعة والنشر والترجمة ، طرابلس الجماهيرية الليبية

٨- ابن فارس : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا : مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، اتحاد الكتاب العرب، ط سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٩- ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ) لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط١ .

ثالثًا : كتب السيرة و القصص و التاريخ .

١- إسماعيل : محمد بكر (الدكتور) : قصص القرآن من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل ، دار المنار للطبع والنشر و التوزيع القاهرة ، ط٢ سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٢- ابن جماعة : عز الدين عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم الكناني الحموي الدمشقيّ المصري"ت: ٧٦٧هـ" : المختصر الكبير في سيرة الرسول ﷺ ، تحقيق: سامي مكي العاني ، دار البشير عمان ، ط١ سنة ١٩٩٣م .

٣- خليل : عماد الدين (الدكتور) : التفسير الإسلامي للتاريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٣ سنة ١٩٨١م .

٤- الدلال : سامي محمد (الدكتور) : الإسلام و العولمة " المنازلة " العالمية الإسلامية و العولمة البشرية بين السنن الربانية و التدافع الإنساني ، مجلة البيان الرياض ، ط١ سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م .

٥- الذهبي : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز " ت : ٧٤٨هـ " : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الأعلام ، تحقيق : د. بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ سنة ٢٠٠٣م .
٦- سالم : السيد عبد العزيز (الدكتور) : التاريخ و المؤرخون العرب ، دار النهضة الحديثة بيروت ، د.ت
٧- سلمان : حسن : النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ ، مؤسسة الوفاء ، بيروت ، ط١ سنة ١٩٨٦ .
٨- السيوطي : عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين " ت ٩١١ هـ" : تاريخ الخلفاء ، تحقيق : حمدي الدمرداش ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، ط١ سنة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م .
٩- الغلبزوري : توفيق بن أحمد (الأستاذ الدكتور) : السنن الكونية والاجتماعية ، كلية أصول الدين جامعة القرويين – المملكة المغربية .
١٠-قاسم : قاسم عبده (الدكتور) : فكرة التاريخ عند المسلمين ، قراءة في التراث التاريخي عند العرب ، عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية القاهرة ، ط١ سنة ٢٠٠١م .
١١-القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري " ت ٦٧١هـ " : التذكرة بأحوال الموتى و أمور الآخرة : تحقيق ودراسة: د. الصادق بن محمد بن إبراهيم ، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض ، ط١ سنة ١٤٢٥ هـ .
١٢-قيلي : حسن سليمان حسن : السنن التاريخية في القرآن الكريم ، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في فلسفة التاريخ ٢٠٠٨م .
١٣-ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي " ت ٧٧٤ هـ" : الفصول في السيرة ، تحقيق وتعليق: محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو، مؤسسة علوم القرآن ، ط٣ سنة ١٤٠٣ هـ

١٤-المبيض : محمد أحمد (الدكتور) : الموسوعة في الفتن و الملاحم و أشراط الساعة ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة

١٠- هيشور : محمد (دكتور) : سنن القرآن في قيام الحضارات و سقوطها ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، سلسلة الرسائل الجامعية ، القاهرة ط١ سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

رابعًا : كتب الفقه و العقيدة .

١- ابن بهادر الزركشي : أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله " ت: ٧٩٤هـ" : البحر المحيط في أصول الفقه ، دار الكتبي ، ط١

سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

٢- ابن تيمية : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني " ت: ٧٢٨هـ" :

- مجموع الفتاوى ، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ، ط سنة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد دار العاصمة السعودية ، ط٢ سنة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .

٣- ابن الوزير : أبو عبد الله عز الدين اليمني حمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي "ت: ٨٤٠هـ" : إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط٢ سنة ١٩٨٧م .

٤- مجموعةٍ من أعضاء هيئة التدريس جامعة الملك سعود : المدخل إلى الثقافة الإسلامية ، مدار الوطن للنشر ، ط١٦ سنة ١٤٣٣ - ٢٠١٢ م .

خامسًا : المراجع الالكترونية .

١- عثمان : عيد عبد الغني الديب (الأستاذ الدكتور) : مقال " تعليم تاريخ المستقبل و تكوين الوعي المستقبلي " ، ٢٠٢٠/١/١٠ ، موقع الإمارات الالكتروني .

٢- الخولي : محمد : مقال " الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ " ١٩٩٨/٣/١٢م ، مجلة البيان الالكترونية .